المُحتَويات

الموضوع	الصفحة

السؤال الثاني:

السؤال الثالث:

السؤال الخامس:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

الإســــلام

ضرورة تقديم الدعوى والدليل من الكتاب السَمَاوي

إنني أتولى اليوم إظهارَ محاسن الإسلام في هذا الجلسة المباركة التي كان الغرض منها أن يبين فيها كل مندوب مزايا دينه، مراعيا في ذلك الأسئلة الخمسة المعلَنة من قبل.

وقبل الخوض في بيان مطلبي، أرى من المناسب أن أخبركم أنني أتعهد فيما أنا قائله ألا أذكر إلا مما ذكره القرآنُ المجيد.. كلامُ الله الطاهر.. لأنني أرى لزامًا على كل من يتدين بكتاب يعتقد أنه وحي رباني.. أن يرُدّ على كل سؤال مستندا إلى ما ورد في كتابه هو، وألا يتوسع فيما أُسند إليه من سُلطة التمثيل، بحيث ينشئ من عنده كتابًا جديدًا.

وبما أننا أخذنا على عاتقنا أن ندلل على محاسن القرآن الكريم، ونبين كمالاته، فحريّ بنا ألا نخرج عمّا بيّنه القرآن بنفسه في أي أمر، وألا نكتب أي شيء إلا اعتمادا على ما ورد في آياته من تلميحات أو تصريحات، ذلك لكي تسهل المقارنة على السامعين الكرام. وبما أن المأمول من كل متحدث أن يلتزم بنقل ما ورد في كتابه المقدس فقط؛ لذلك تركنا الأحاديث النبوية جانبًا، وإن كانت جميع الأحاديث الصحيحة مستمدة من القرآن الكريم نفسه، فهو الكتاب الكامل الذي خُتمت به جميع الكتب. فاليوم يومُ ظهورِ عَظَمة القرآن الكريم.

وإننا ندعو الله تعالى أن يكون لنا ناصرا ومعينا في هذه المهمة. آمين!

السؤال الأول

حالات الإنسان
الطبْعية والأخلاقية والروحانية

أرجو أن يتذكر السامعون الكرام أنهم سيجدون في أول هذا المقال كلمات تمهيدية لا تبدو ذات صلة بالموضوع، ولكنها في الحقيقة ضرورية جدًّا لتوضيح المطلوب، لذلك ذكرناها حتى لا يصعب على أحد إدراكُ الغرض المقصود.

الحالات الثلاث للنفس البشرية

لا يخفى أن السؤال الأول يتصل بحالات الإنسان الطبْعية والأخلاقية والروحانية. فاعلموا أن كلام الله القرآن الكريم قد قسم هذه الحالات الثلاث تقسيمًا يحدد لها ثلاثة مبادئ، لكل حالة منها مبدأ على حدة. وبعبارة أخرى: إنه جعل لكل حالة من هذه الحالات الثلاث ينبوعًا خاصا تنبع منه.

الحالة الأولى: النفس الأمارة

يسمي القرآنُ الكريم الينبوعَ الأول الذي يُعتبر مَوْرِدًا ومصدرًا لجميع الحالات الطبْعية "النفسَ الأمارة"، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسوءِ﴾(يوسف:٥٤).. أي أن من خواص النفس الأمارة أنها تميل بالإنسان إلى السيئات التي تُغاير الأخلاقَ وتُنافي الكمال، وتدفعه إلى السير في مسالك السوء ومذاهب المنكر. فخروج الإنسان عن حد الاعتدال وجموحُه إلى السيئات، حالةٌ تسبق حالتَه الأخلاقية وتستولي عليه بصورة طبيعية، وتسمّى هذه الحالة طبْعية ما لم يمشِ الإنسان في ظل العقل والمعرفة، وإنما يتبع -كالبهائم- النوازعَ الطبْعية في الأكل والشرب والنوم واليقظة والغيظ والغضب وما شابه ذلك من الميول والأهواء. أما إذا تصرف في حالاته الطبْعية على ضوء توجيه العقل والعرفان، وراعى فيها حد الاعتدال المطلوب، فلا تبقى هذه الحالات طباعًا، بل تصير أخلاقا، كما سنبيّنه بالإيجاز فيما بعد.

الحالة الثانية: النفس اللوامة

وأما منشأ الحالات الأخلاقية فاسمه في القرآن المجيد "النفس اللوامة".. كما يقول الله عز وجل: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ

اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة: ٣).. أي أُقسِم بالنفس التي تلوم ذاتها على كل مأثمة تغشاها أو زلة تبدر منها. هذه النفس اللوامة هي الينبوع الثاني الذي تنشأ منه الحالات الأخلاقية . وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة نجا من مشابهة الأنعام. وقد أقسم الله هنا بالنفس اللوامة تنويهًا بمكانتها، فكأنما استحقت عند الله هذا الإكرام لأنها انسلخت عن طبيعتها الأولى الأمارة بالسوء، وارتقت إلى درجة النفس اللوامة.

وقد سماها الله "اللوامة" لأنها تلوم الإنسان على إتيان السيئة، ولا ترضى له أن يسترسل في دوافعه الطبْعية استرسالَ الأنعام المطلَقة القيود وأن يعيش عيشة البهائم، بل تريد ألا يصدر منه إلا خيرُ الحالات وصالح الأخلاق، وألا يتجاوز حد الاعتدال في جميع لوازم الحياة، وأن يلبي رغباته وأهواءه الطبْعية باسترشاد من العقل. وبما أن النفس تلوم الإنسان على ارتكاب السوء.. فلذلك وصفها الله باللوامة، أي كثيرة اللوم.

والنفس اللوامة وإن كانت تمقت الانصياعَ للنوازع الطبْعية، ولا تنفك تلوم نفسها.. فإنها مع ذلك لا تكون قادرةً كل القدرة على عمل الصالحات، بل إن النوازع الطبْعية تصرعها أحيانا، فتتعثر

وتسقط كأنها طفل ضعيف يحاول ألا يسقط، إلا أنه يسقط بسبب ضعفه، ويأسف على عجزه هذا.

وخلاصة القول.. إن هذه حالة أخلاقية تجمع بها النفس في ذاتها مكارم الأخلاق، وتكره الطغيان والفسوق.. ولكنها لا تستطيع بعد أن تتغلب على النفس الأمارة حق الغلبة.

الحالة الثالثة: النفس المطمئنة

هذا، وهناك منبع ثالث ينبغي اعتباره مصدرًا للحالات الروحانية كلها.. اسمه في مصطلح القرآن الحكيم: "النفس المطمئّنة"، وقد ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر: ٢٨-٣١).

هذا هو المقام الروحاني الذي تتخلص فيه النفس من كل ضعف، وتمتلئ من القوى الروحانية، وتتصل بربها اتصالا لا تكاد تحيا بدونه. وكما أن السيل ينحدر متدفقًا في جريانه تدفقًا شديدًا بسبب غزارة مياهه وانعدام العوائق، فكذلك النفس المطمئنة تنطلق مندفعةً إلى الله. وإلى هذا الاندفاع تشير الآية: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيّةً﴾.

فالنفس تتبدل تبدلا عظيمًا في هذه الحياة، كما بعد الموت، وتجد نوعا من الجنة في هذا العالم، كما في غيره؛ كما تقول الآية ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾.. أي تعالَيْ إلى من ربّاك.. فإن هذه النفس عندئذ تتربى بربوبية الله، وتتغذى من حُبّ الله، وتستقي من ذلك المَعين الواهب للحياة، فلا تذوق الموت أبدا؛ كما جاء ذلك في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس: ١٠-١١).. أي من طهر نفسه من النوازع الأرضية فقد نجا من الهلاك، وأما من أخلد إليها فقد يئس من الحياة.

فهذه هي الحالات الثلاث التي يمكن أن نسميها -بعبارة أخرى- الحالات الطبْعية والأخلاقية والروحانية. وبما أن النوازع الطبْعية تصبح عند الإفراط خطرًا عظيمًا، وكثيرا ما تُفسد أخلاقَ الإنسان وتتلف روحانيته، لذلك فقد عُبر عنها في كتاب الله القدوس باسم النفس الأمارة بالسوء.

تفاعُل الجسد والروح

وإذا سأل سائل: ما هي تعاليم القرآن المجيد لأجل إصلاح الحالات الطبْعية؟ كيف يرشد الإنسان في شأنها، وإلى أي حد يسمح بالعمل بمقتضاها؟

فالجواب – وفق هداية الفرقان – أن هناك روابط شديدة للغاية بين الحالات الطبْعية والحالات الأخلاقية والروحانية، حتى إن أسلوب المرء في الأكل والشرب يؤثّر أيضا في حالاته الأخلاقية والروحانية. ولو استخدم الإنسان أحواله الطبْعية بمقتضى الشريعة لتحولت كل أحواله الطبْعية أخلاقًا كما تتحول الأشياء في داخل الملح مِلحًا، ولأثّرت في روحانيته تأثيرًا عميقًا. ومن أجل ذلك اهتم القرآن المجيد أشد الاهتمام برعاية الطهارة الجسمانية والآداب الظاهرية والحركات الجسدية في سائر العبادات وفي جميع الفرائض التي كان القصد منها إخضاعَ النفس وتزكية الباطن.

وإذا أمعنا النظر تبين لنا أن الفلسفة الصحيحة الصائبة للغاية هي أن للأوضاع الجسمانية تأثيرًا قويًا في الروح*.. فإننا نرى أن أفعالنا الطبْعية، وإن كانت جسمانية، إلا أن لها أثرًا محسوسًا في حالاتنا النفسية والروحانية يقينا. فالعين مثلا إذا أخذتْ في البكاء ولو تصنعًا.. فلا بد أن تنبعث من الدموع لوعة تسري إلى القلب، يَخضع لها ويكتئب. وكذلك لو ضحِكنا – وإن يكن تكلّفًا – اكتسب

* *الروح هي الكيان المعنوي للإنسان، وتتعلق بها الحالات النفسية التي تشمل الطباع والانفعالات والعوارض النفسية، فمثلا عندما نقول: إن فلانا هادئ الطبع، فهو يتعلق بروحه لا بجسده. بينما لو قلنا هذا الشخص طويل فهذا يتعلق بجسده. (المترجم)*

الفؤاد فرحًا وانبساطًا. وكذلك نرى أن السجود الجسماني يولد في نفس الساجد حالة من التضرع والخشوع. كما نشاهد بالعكس أنه لو مشى الإنسان رافعا رأسه مبرزا صدره، فمشيته هذه تولد في نفسه كبرا وغطرسة. ومن هذه الأمثلة يتبين تماما أن للأوضاع الجسمانية أثرا في الحالات النفسية والروحانية من دون ريب.

تأثير الأغذية في سلوك الإنسان

كذلك تثبت لنا التجارب أن الأغذية المتنوعة تؤثّر أيضا في الوظائف الفكرية والقوى النفسية دون شك. انظروا مثلا إلى الذين لا يأكلون اللحوم أبدا.. كيف تضمحل فيهم قوة الشجاعة شيئا فشيئا حتى إنهم يصبحون جبناء للغاية، وهكذا يفقدون قوة محمودة هي إحدى مواهب الرحمن! ونجد على ذلك شاهدا آخر من السُنة الإلهية الجارية في الحيوانات التي تقتات على الأعشاب، إذ لا يوجد من بينها حيوان واحد له مِثلُ شجاعة الحيوان الذي يتغذى باللحوم. وهذا هو المشاهَد أيضا في الطيور. فلا شك إذًا أن الأغذية تؤثر في الأخلاق تأثيرا عظيما.

أجل.. إن الذين يُغرَمون باللحوم ليل نهار، ولا يتناولون من الأغذية النباتية إلا قليلا جدا، يتضاءل فيهم خُلق الحلم والتواضع.

أما الذين يتخذون طريقا وسطًا بينهما فيكسبون كلا الخُلقيْن. ولهذه الحكمة نفسها أمرنا الله تعالى بقوله﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف:٣٢).. أي كُلوا من اللحوم ومن الأغذية الأخرى أيضا، ولا تُفرطوا في شيء مما تأكلون، لئلا تتضرر أخلاقكم من هذا الإفراط، ولا تتضرر به صحتكم أيضًا.

وكما أن الأفعال الجسمانية تؤثر في الروح، كذلك فإن للروح تأثيرًا يَنبثّ في الجسد أيضًا في بعض الأحيان. فمَنْ أصابه الغم اغرورقت عيناه بالدموع، ومن أحس بالسرور افترّ مبسمه. إن جميع أفعالنا الطبْعية الضرورية - كالأكل والشرب والنوم واليقظة والحركة والسكون والاغتسال وغيرها - تؤثر في حالاتنا الروحانية. ثمة رابطة محكمة بين تكويننا الجسماني وتركيبنا النفسي، إذ تذهب الذاكرة فجأة عند إصابة مركزها في الدماغ، وقد يغيب الإنسان عن الوعي والحس تماما بإصابة المركز الحسي في الدماغ. وكذلك ترون أن نَسَمة من الهواء السام الموبوء سرعان ما تؤثّر في الجسد، وتنتقل منه إلى القلب، فلا يلبث أن يختل النظام النفسي الذي به قوام الأخلاق كلها، حتى يصبح الإنسان كالمتخبط الذي مسه الجنون، فما يلبث أن يفرط في بضع دقائق.

نشأة الروح من الجسد

فالإصابات الجسمانية تُرينا مَشهدًا عجيبًا يُثبت أن بين الروح والجسد علاقة ليس في وسع الإنسان أن يكشف سِرّها المكنون، وأعجب من ذلك أننا إذا تدبرنا وجدنا أن الجسد بمنزلة الأم للروح. إن الأرواح لا تتنزل أبدًا في بطون الحوامل من جوّ السماء*، وإنما هي نور مكنون في النطفة نفسها ذاتها، ينكشف شيئا فشيئا مع نشوئها ونموّها.

يخبرنا كلام الله الكريم بأن الروح تنشأ من الجسد ذاته الذي يتكون من النطفة في الرحم، كما يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.. حيث يذكر تكون الإنسان من النطفةِ فالعَلَقةِ: ﴿ثُم أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٥).. أي أننا ننشئ الجسد المتكون في الرحم نشأة أخرى، ونُبرز له خَلقا آخر يسمى الروح. فالله ذو بركاتٍ كثيرة وهو أحسن مَن يخلق.

وأما قول الله تعالى هنا بأننا من نفس القالب نُبرز خَلقًا آخر، فهو سر عميق يبين لنا حقيقة الروح، ويوضح العلاقة المتينة التي تربطها بالجسد. وإذا فَهِمْنا هذه العلاقة أدركنا أيضًا كيف تعمل الحكمة

---

* *هذه عقيدة الهندوس وغيرهم.(المترجم)*

الإلهية عملَها في أفعال الإنسان وأعماله وأقواله الطبْعية كلها، وكيف أن الأعمال الخالصة لله تعالى تكمن بداخلها روحٌ منذ البداية كما تكمن الروح في النطفة منذ البداية، وبقدر ما تتبلور وتتضح صورة الأعمال تزداد هذه الروح صقلا، حتى إذا اكتملت بنيةُ العمل لمعت فيه الروح فجأة بتجليها الكامل، وتُثبت نفسها كوجود روحي مستقل، فهنالك تبتدئ في جسد الأعمال حركةُ الحياة المحسوسةُ. وما أن يكتمل جسد الأعمال حتى ينبثق في داخلها، فجأةً، شيءٌ كالبرق يتلألأ تلألؤًا واضحًا. وهذه هي الفترة التي يصفها الله، تمثيلا، في كتابه الحميد بقوله:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣٠)..

أي إذا أتممتُ قالبه، ووضعتُ جميع مظاهر التجليات في مواضعها، ونفخت فيه من روحي، وجب عليكم جميعا أن تخروا له على الأرض ساجدين. فالآية تشير إلى نفس المعنى.. أي أنه عندما يكتمل قالب الأعمال، تتجلى فيه تلك الروح التي نسبها الله إلى ذاته. وبما أن هذا القالب لا يتكون إلا إذا طرأ الفناءُ الكامل على حياة الإنسان المادية، لذلك يُشرق فيه النور الرباني دفعة واحدة بعد أن كان ضئيلا.. وعندها يجب على كل من يشاهد هذه العظمة الإلهية أن يسجد لله

وينجذب إليه. وهكذا يسجد الجميع عند رؤية هذا النور.. ويُقبلون عليه بطبعهم.. إلا إبليس اللعين الذي يحب الظلام.

✪لا يخلو من الفائدة ذكر نقطة ههنا، وهي أن الجنين الذي يتكوّن في الرحم يبدأ بالحركة والنشاط بعد أربعة أشهر وعشرة أيام. وهذه الفترة تقارب نصف الفترة التي يبقى فيها الجنين في الرحم. فكما يبدي الجنين آثار حياته في الشهر الرابع وينتقل من الهيئة النباتية إلى الهيئة الحيوانية، فإن قانون الطبيعة نفسه ينطبق على الولادة الروحانية، أي كما أن الجنين يُبدي آثار الحياة ومن ثم يُظهر نموذجا كاملا للحياة بعد قضاء نصف الفترة المحددة له فيه، كذلك فإن الحالة نفسها مقدرة للحياة الروحانية. إن متوسط عمر الإنسان الخالي من شوائب اختلال الحواس يقدَّر بثمانين عاما في أغلب الحالات، ونصف الثمانين هو الأربعون الذي يشبه إلى حد كبير لفظ الأربع، أي أن مِن عند انقضاء الأشهر الأربعة تُنفخ في الجنين روح الحياة.

فالتجربة الصحيحة توحي أنه حين يقضي الإنسان نصف حياته السليمة، أي يقضي فترة أربعين عاما المشابهة لفترة أربعة أشهر من

✪ *النص الوارد بين هذه النجمة والنجمة التالية في صفحة ١٧ موجود في المسودة الأصلية إلا أنه لم ينشر في الطبعة الأولى، ونضيفه الآن بإذن من حضرة الخليفة الخامس أيده الله. (الناشر)*

بقائه في الرحم أو يبلغ رأس أربعين عاما عندها تبدي روح الصدق – إذا وُجدت في طبيعته – آثارها بصورة بارزة وتتنشط.

لا يخفى على أحد أن فترة الظلام تظل مستولية على الإنسان في معظم الحالات قبل بلوغه أربعين عاما، إذ تمر سبعة أو ثمانية أعوام في الطفولة، ثم يظل عاكفا على التحصيل العلمي إلى ٢٥ أو ٢٦ عاما أو يضيعها في اللهو واللعب، وبعد هذه الفترة تتغلب عليه أطماع دنيوية مختلفة إما نتيجة زواجه وعياله أو بسبب ميوله الطبيعية، فتتولد في قلبه أصناف الأماني والأطماع في الأموال والأعراض الدنيوية فتبلغ أفكاره حد الإفراط من أجل الملذات الدنيوية لدرجة أن الأطماع الدنيوية ترافقه إلى حد ما حتى لو توجّه إلى الله تعالى. ولو انصرف إلى الدعاء أحيانا في هذه الحالة فإن دعاءه يكون من أجل الأمور الدنيوية في أغلب الأحيان؛ وإذا بكى كانت بعض الأغراض الدنيوية أيضا تشوب دوافع بكائه. وإيمانه بيوم المعاد يكون ضعيفا جدا. وإذا كان يؤمن بالمعاد فيداخله شعور أن هناك فترة طويلة أمامه قبل الممات. إن سيل الأهواء النفسانية يعرِّض حياته لخطر كبير مثل انهيار سد النهر الذي يهلك سيله الحرث والأرض حوله، فأنّى له أن يدرك في هذه الحالة أمورا دقيقة تتعلق بالمعاد؟ بل يسخر من الأمور الدينية ويستهزئ بها ويُقدّم عليها مَنطقه الجاف وفلسفته البذيئة. أما إذا كان سليم الفطرة فيؤمن بالله تعالى، ولكن

ليس بصدق القلب والإخلاص، بل يجعل إيمانه هذا مشروطا بتحقق مراداته، فلو تحققت مراميه صار لله وإلا فللشيطان.

فباختصار، إنه يمر في فترة الشباب بحالة خطرة جدا، وإن لم تأخذ رحمة الله بيده لوقع في حفرة من النار. الحق أن في هذه الفترة من العمر يوضع الأساس للمفاسد كلها. ففي هذه الفترة نفسها يعرّض الإنسان نفسه لمعظم الأمراض الجسدية والأعراض المخجلة، وأحيانا - نتيجة أخطائه في هذا السن غير الناضجة - يُعرض عن الإله الصادق الذي لا يتغير.

باختصار، في هذه الفترة تتضاءل عنده خشية الله وتغلبه النفس فيسعى لإشباع الشهوات، ولا يريد أن يسمع لناصح، فيتحمل طوال حياته وبال أخطاء ارتكبها في تلك الفترة. ثم عندما يبلغ أربعين عاما تبدأ ثورة الشباب تهدأ رويدا رويدا، فيندم على كثير من أخطائه التي أعيت ناصحيه من قبل، وتظل ثوائر النفس عنده تخمد تلقائيا، لأن مرحلة زوال العمر من حيث القوى الجسدية تكون قد بدأت، فأنى للدم الثائر أن يتولد الآن كما كان يتولد قبلا، ولا تبقى في الأعضاء تلك القوة المعهودة، ولا يعود هناك نشاط الشباب ونشوته كما كان سابقا، بل يحل زمان الانحطاط والنقصان. ويرى الإنسان في مثل هذا السن موت الذين كانوا يكبرونه سنوات، بل يقصم الظهر أحيانا موت الصغار بحسب القضاء والقدر؛ وعلى الأغلب في هذه الفترة من العمر يكون الوالدان أيضا قد فارقاه

وصارا من المقبورين، كما تظهر له نماذج أخرى دالة على عدم بقاء هذه الدنيا، وكأن الله تعالى يضع أمامه مرآة ويقول له هذه هي حقيقة هذا العالم الفاني، وهذا هو مآل هذه الحياة التي تزهق نفسك حسرة عليها. عندها ينظر الإنسان إلى أخطائه السابقة بعين الحسرة ويحدث انقلاب عظيم في حياته فيتراءى له عالم جديد شريطة أن يكون سليم الفطرة ومن الذين دُعوا بقوله: ﴿ارجعي إلى ربك..﴾.

وعن هذا الموضوع نفسه يقول الله جل شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأحقاف:١٦)، أي وصينا الإنسان أن تبرّ إلى والديك ولتضع في اعتبارك المشاق التي تحملتها أمك من أجلك، إذ إنها ظلت فترة من الزمن تكابد المصاعب بسبب حملها بك، ثم وضعتك بالآلام والمشاكل، فقد تحملتْ طيلة ثلاثين شهرا كل هذه المصائب بسبب حملها بك وإرضاعك. ثم يقول تعالى: عندما يبلغ الإنسان أربعين سنة ويبلغ أشده يتذكر وصايا الله تعالى ويقول: ربّ وفقني لأشكر نِعَمك التي أنعمتها عليّ وعلى والديّ. رب أوزعني أن أقوم بأعمال ترضاني بها. وأصلح لي في ذريتي.. يعني: إن كنت مقصّرًا في حق والديّ

فأتمنّى ألا يقصِّر أولادي في حقي، وإذا كنت في حياتي طائشا فلا يكونوا طائشين مثلي. رب إني تبت إليك وأصبحت من المسلمين.

فقد وضح الله تعالى في هذه الآية أن السنة الأربعين تكون مباركة لعباده الصالحين. فمن كانت فيه روح الصدق فلا بد أن تتنشط في السنة الأربعين. ولقد بُعث معظم أنبياء الله تعالى على رأس السنة الأربعين من أعمارهم، وسيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ أيضا بُعث لإصلاح خلق الله تعالى وهو في الأربعين من عمره. ✪

الروح مخلوقة

والآن نعود إلى ما كنا بصدده فنقول: إن الحق الذي لا ريب فيه مطلقًا هو أن الروح نور لطيف ينشأ من الجسد الذي يتكون داخل الرحم. والمراد من نشوء الروح من الجسد هو ظهورها بعد الكمون.. وقد كانت خميرتها مستترة في النطفة منذ البداية. إنها بلا شك، وبأمرٍ وإذن ومشيئة من رب السماء.. تتعلق بالنطفة علاقةً غامضة. إنها جوهر نوراني للنطفة. لا نستطيع القول إنها جزء من النطفة كما يكون العضو جزءا من الجسم، كما لا نستطيع القول أيضا إنها تدخل في النطفة من الخارج، أو أنها تهبط من السماء فتمتزج بمادة النطفة، بل إنها كامنة في النطفة كُمونَ النار في الزند.

لا يقول كتاب الله أن الروح تتنـــزل من السماء نـــزولا منفصلا، أو تهبط على الأرض من الفضاء.. ثم تختلط بالنطفة مصادفة وتتسرب معها إلى الرحم. إن هذا الزعم لا يصح أبدا، ولئن ظننا هذا لكذبتنا سُنن الفطرة.

فإننا نرى كل يوم ألوفا مؤلفةً من الديدان والجراثيم تتكون في الأطعمة الآسنة الفاسدة وفي الجروح المتقيحة، ومئات من القمل تتولد في الثياب المتسخة، وأنواع الديدان تتولد في البطن أيضا.. فهل نقول إن أرواحها تأتي من الخارج؟ أم هل رآها أحد تتساقط من السماء؟ كلا، بل الحق أَن الروح تنشأ من الجسد ذاته، وهذا النشوء نفسه دليل قاطع على كونها من المخلوقات.

النشأة الثانية للروح

ومقصدنا من هذا البيان هو القول إن الخالق القدير الذي أنشأ الروحَ بقدرته الكاملة من الجسد ذاته.. يبدو أنه يريد أن يقوم بالنشأة الثانية للروح عن طريق الجسد أيضا. إن حركات الروح موقوفة على حركات أجسادنا، وحيثما قُدْنا الجسد انقادت معه الروح وتبعتْه لا محالة. لذلك كان من واجب كتاب الله الحق أن يهتم بمعالجة حالات الإنسان الطبْعية، ومن أجل ذلك وجه القرآن

الكريم عناية خاصة نحو إصلاح أوضاع الإنسان الطبْعية، وأمره بمراعاة شروط وآداب معينة فيما يتعلق بالضحك والبكاء، والأكل والشرب، واللبس والنوم، والزواج والعزوبة، والنطق والصمت، والمشي والوقوف، والنظافة الظاهرية بما فيها الغسل وغيره، والمرض والصحة.. وغيرها من الأمور، واعتبر هذه الحالات الطبْعية ذات تأثير عظيم في حالات الإنسان الروحانية. ولئن تناولتُ هذه الأمور بالتفصيل فلا أحسب أن نحصل على وقت كافٍ لقراءة هذا الموضوع الفسيح.

الارتقاء التدريجي للإنسان

عندما تدبرتُ كلامَ الله المجيد، ووجدتُ كيف أن الله تعالى علم الإنسان مبادئ الإصلاح لحالاته الطبْعية كي يسمو به تدريجيا إلى الأعلى فالأعلى، حتى يبلغ به منتهى المعراج الروحاني.. تبَين لي أن هذه المبادئ الحكيمة تتلخص في أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الإنسان أولا آدابَ القعود والقيام والأكل والشرب والمحادثة وغيرها من آداب المعاشرة، ليُخرجه من الأطوار البهيمية، ويميزه عن مشابهة الأنعام تمييزًا كاملا، ويصلَ به إلى أول حالة أخلاقية تسمى الأدب والتهذيب. ثم أراد الله تعالى أن يخفف من حدة عادات الإنسان

الطبْعية – التي يمكن أن نسميها أخلاقا رذيلة – تخفيفا تتحول به أخلاقًا فاضلة. ولكن الحق أن هذين الطريقين شيء واحد لأن كليهما يهدفان إلى إصلاح الحالات الطبْعية، وليس الفرق بينهما إلا فرق الأدنى والأعلى، فقد وضع ذلك الحكيم المطلق ﷻ نظامَ الأخلاق بحيث يستطيع الإنسان الارتقاءَ من الخُلق الأدنى إلى الأعلى.

حقيقة الإسلام

ثم إن الحالة الثالثة التي وضعها الله تعالى لتقدم الإنسان ليصبح روحانيًا هي أن يتفانى في حب خالقه ورضوانه ويصبحَ وجوده كليةً لله وحده. وتذكيرًا بهذه المرتبة سمى الله دين المسلمين باسم الإسلام.. لأن الإسلام معناه أن يكون الإنسان كله لله، ولا يبقي لذاته من شيء، كما يقول الله جل جلاله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٣).

.. أي أن الناجي هو ذلك الإنسان الذي ضحى بنفسه في سبيل الله تعالى، وأثبت صدقه ليس بالنية فقط بل بالأعمال الصالحة. ومن فعل ذلك فقد وجب أجره عند الله، وكان من الذين لا يخافون شيئا ولا يحزنون..

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣-١٦٤)، ويقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٤)، ويقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣٢).

أي قل إن صلاتي وتضحياتي، وحياتي وموتي، هي لله الذي تشمل ربوبيته كل الموجودات. لا شريك له مِن البشر ولا مِن غير البشر في أي نوع. هذا ما أمرني به، وأنا أول وأفضل من يطبق مفهومَ الإسلام .. ويبذل نفسه في سبيل الله. هذا هو سبيلي. فهلموا اتبعوا سبيلي هذا ولا تسلكوا غيرَه من السبل، فتنحرف بكم بعيدا عن الله. قل لهم: إذا كنتم تحبون الله فتعالوا سيروا ورائي واسلكوا طريقي وسوف يحبكم الله ويغفر لكم، فهو كثير المغفرة واسع الرحمة.

الفرق بين الحالات الطبْعية وبين الأخلاق

فلنأتِ الآن إلى بيان الحالات الثلاث المذكورة كل على حدة، ولكن يجب أن أُذكر أولا بأن الحالاتِ الطبْعية التي مصدرها النفس الأمارة ليست منفصلة عن الحالات الأخلاقية، بحسب ما ورد من

إشارات في كلام الله المجيد.. الذي جعل جميع الملكات الطبْعية والميول والرغبات الجسدية في عداد الحالات الطبْعية، ونفسُ هذه الحالات الطبْعية تتحول إلى أخلاق فاضلة عند صدورها بإرادة صاحبها.. مرتبةً معدلةً في محلها الأنسب. وكذلك فإن الحالاتِ الأخلاقيةَ ليست مغايرةً للحالات الروحانية، بل إن الحالات الأخلاقية نفسها تصطبغ بالصبغة الروحانية من خلال التفاني والانمحاءِ الكامل في الله، والتزكيةِ التامة من أجله، والانقطاعِ الكامل إليه، والحب الخاص له، والوصالِ الكامل معه، والسكينةِ والطمأنينة والموافقة التامة معه تعالى.

إن الحالات الطبْعية لا تؤهل الإنسان للثناء ما لم تَصِرْ أخلاقا.. إذ لا تخلو منها الحيواناتُ وحتى الجمادات. كما أن اكتساب الأخلاق الفاضلة وحده أيضا لا يهب للإنسان حياةً روحانية، فقد يتخلق بها ملحد يكفر بالله تعالى. إن استكانة القلب، ورقة الفؤاد، والمسالمة، ومجانبة الشر، والإعراض عن مقاومة الشرير.. كل هذه حالات طبْعية يمكن أن يتصف بها شخص غير صالح لا معرفة ولا نصيب له من ينبوع النجاة الحقيقي. فكم من حيوان يتمسكن ويسالم الإنسانَ بالاستئناس والتأليف والترويض، فنراه ذَلولاً لا يقاوم وإن ضُرب وهو نائم، ومع هذا لا يصح أن نسميه إنسانا، ناهيك عن اعتباره بسبب

هذه الخصال من الطراز الأول بين البشر. كذلك يمكن أن يتطبع بذلك حتى أسوأ الناس عقيدة، بل من يرتكب بعض الفواحش أيضا.

دحضُ الجَيْنِية*

ومن الممكن أن تبلغَ الرأفة بالإنسان إلى درجة لا يُجيز معها قتلَ الديدان التي تتولد في جروحه، ويشفقَ على ذوات الحياة بحيث لا يرضى أن يؤذي حتى القَمْلَ الذي يدبّ في الرأس، والديدانَ التي تتولد في الأمعاء. بل إنني لأقبَلُ أن تُفضي الرحمة بالإنسان إلى أن يعاف العسلَ إبقاءً على النحل، إذ لا يُجمَع العسل إلا بعد إزعاج النحل المسكينة من مأمنها وإهلاك الكثير منها. وإني لأسلم أيضا أن يأنف البعض من استخدام المِسْك لأنه من دم الغزال المسكين.. ولأن اقتناءه يؤدي إلى قَتْله وفصله عن صغاره. وكذلك لا أنكر أن يكف البعض عن استعمال اللآلئ ويمتنعوا عن لبس الحرير رحمةً ورفقا بالحيوان.. إذ لا يمكن الحصول عليهما إلا بالقضاء على تلك الديدان الضعيفة. بل إني لأصدق بأن يتورع أحد المصابين من أن يسخر دودة العلق لامتصاص دمه الفاسد، مُؤْثِرا تحملَ الألم بنفسه

* *الجَينية فرقة هندوسية تحرِّم أكل أي حيوان. (المترجم)*

على أن يدفع العَلَق المسكين للموت. وفي نهاية الأمر، فإني لأصدق، وإن لم يُصدق غيري، أن تبلغ الرحمة بأحد منتهاها فيتركَ شُربَ الماء ويُهلِك نفسه إبقاءً على الجراثيم الموجودة في الماء!! نعم، أقبل كل هذا، ولكن لن أقبل اعتبار جميع هذه الحالات الطبْعية شيئا من الأخلاق، أو أنها وحدها قادرة على تطهير الإنسان من الأدران الباطنة التي تحول دون وصاله بالله تعالى. كلا، لن أصدق أبدا أن مثل هذا التمَسْكن والهوادة التي قد يفوق البشرَ فيها قليلا بعضُ الدواب والطيور.. تضمَنُ للإنسان الارتقاءَ إلى الإنسانية السامية. كلا، بل إن ذلك عندي حربٌ ضد سنن الفطرة، ويتنافى مع خُلق فاضل يُسمى الرضا، وكفرانٌ بالنعمة العظمى التي أعطانا الله إياها. ألا إن تلك الروحانية إنما تُنال باستعمال كل خُلق في محله، ثم بالسير في سبل الله بالوفاء، وبالاستسلام التام لله تعالى. ومن كان لله فإنما علامته أنه لا يستطيع الحياة بدونه سبحانه. إن العارف بالله سمكة تُذبَح بيد الله.. وماءِ حياتها حُبهُ تعالى.

طرق الإصلاح الثلاث

أعود الآن إلى كلامي السابق. لقد ذكرتُ آنفا أن للحالات البشرية ثلاثةَ منابع: هي النفس الأمارة؛ والنفس اللوامة؛ والنفس المطمئنة. وكذلك للإصلاح طرق ثلاث.

الطريق الأول هو النهوض بالمتوحشين الهمج إلى أدنى الأخلاق، وذلك بأن يسلكوا طريق الإنسانية فيما يتعلق بآداب الأكل والشرب والزواج وما شابه ذلك من أمور التمدن البسيط.. فلا يمشون عراة، ولا يأكلون الميتة كالكلاب، ولا يأتون غير ذلك من أفعال الهمجيّة.

وهذه أدنى مرحلة من مراحل إصلاح الحالات الطبْعية. فلو أُريد مثلا تعليم الآداب الإنسانية لأحد المتوحشين من بورت بلير (Port Blair) فيعلم أولا ما هو أدنى خلق من الأخلاق البشرية، والأسهل من الآداب الإنسانية.

والطريق الثاني هو أنه إذا تمكنَ أحدٌ من تعلم الآداب الإنسانية الظاهرية يُعَلم ما فوقها من الأخلاق الإنسانية الفاضلة، ويدرب على استعمال قواه الكامنة في مواضعها الملائمة.

والطريق الثالث هو أن هؤلاء المتحَلّين بالأخلاق الفاضلة – وهم بعدُ زُهاد ذوو جفاف روحاني – يجب أن يُسقَوا رحيق المحبة ويُذاقوا لذة الوصال.

هذه هي المدارج الثلاثة من الإصلاح التي بينها القرآن المجيد.

بعثة النبي ﷺ عند الحاجة إلى الإصلاح الكامل

لقد بُعث سيدنا ومولانا محمد ﷺ.. في زمن كان العالم فيه قد فسد وخرب من كل الوجوه كما يصفه الله تعالى بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم:٤٢).

وفساد البر والبحر يشير إلى أن الفساد قد عم أهل الكتاب وغيرهم من الأمم المحرومة من ماء الوحي. وعليه فإن هدف القرآن المجيد في الحقيقة هو إحياء الموتى كما يقول سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أنَّ اللّٰهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الحديد:١٨).

كان العرب يومئذ قد تدنوا إلى أحط درجات الهمجيّة. لم يعُدْ لديهم أي نظام يعلمهم القِيمَ الإنسانية. وكانت المعاصي مفاخر عندهم يتباهون بها. كان الواحد منهم يحتفظ بمئات الزوجات. وكان أكل الحرام عندهم سائغا كصيد يصطادونه، وكانوا

يستبيحون نكاح الأمهات، ولأجل ذلك جاء تحريمهن في القرآن بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٤).

كذلك كانوا يأكلون الميتةَ، بل لحم البشر أيضا. ما من مأثمة في العالم إلا كانوا يأتونها. كانوا ينكرون يوم الحساب، وكان أكثرهم يكفرون بالله أصلا، ومعظمهم كانوا يئدون البنات بأيديهم، ويقتلون الأيتام ليأكلوا أموالهم. كانوا في الظاهر أناسا.. ولكنهم مسلوبو العقول، لا حياء عندهم ولا حشمة ولا غيرة. كانوا يعاقرون الخمر كالماء. كان أزناهم أسبَقَهم إلى الرئاسة. وكانوا من الجهالة بحيث إنهم اشتهروا بين الأمم المجاورة جمعاء باسم الأميين.

في مثل هذا الزمان، ولإصلاح هؤلاء الأقوام.. ظهر في مكة سيدنا ومولانا محمد ﷺ. فلا شك أن ذلك الزمن كان زمنَ الإصلاحات الثلاثة التي ذكرناها آنفا. ولأجل ذلك يدعي القرآن الكريم بكونه أكمل وأتم من جميع شرائع العالم. ذلك لأن الصحف الأخرى لم يتيسر لها القيام بهذه الإصلاحات الثلاثة، بينما سنح ذلك للقرآن المجيد. كان هدفه أن يجعل من البشر المتوحش إنسانا متحضرًا، ومن الإنسان المتحضر إنسانا ذا خلق، ومن الإنسان المتخلق إنسانا ربانيا. ولذلك يشتمل القرآن المجيد على هذه الأمور الثلاثة.

طرق الإصلاح الثلاثه هي الهدف الحقيقي من تعليم القرآن

وقبل أن نفصل الإصلاحات القرآنية الثلاثة، نرى من الضروري أيضًا أن نذكر أنه لا يوجد في القرآن الحكيم تعليم يُكرِه الإنسان على قبوله، بل إن هدف القرآن كله هو الإصلاحات الثلاثة، وهي خلاصة جميع تعاليمه، وأما الأحكام الباقية فهي وسائل للإصلاحات المقصودة فقط. وكما أن الطبيب يلجأ في معالجة المرض واسترداد الصحة إلى التشريح تارة، وإلى التضميد والتدهين تارة أخرى، كذلك فعَل القرآن الحكيم.. فاستعمل تلك اللوازم في محلها رحمة بالبشر. وكل ما جاء في القرآن المجيد من معارف ووصايا ووسائل إنما ترمي إلى غاية واحدة.. وهي انتشال الإنسان من حالاته الطبْعية التي تصطبغ بصبغة الوحشية، والوصولُ به إلى الحالات الأخلاقية، ثم إيرادُه بحرَ الروحانية الذي لا نهاية له.

تتحول الحالات الطبيعية أخلاقا بعد تعديلها

لقد قلنا آنفا إن الحالات الأخلاقية لا تختلف عن الحالات الطبْعية.. بل هي عين الحالات الطبْعية التي تتحول إلى أخلاق بعد تعديلها واستعمالها في محلها حسب توجيه العقل. إن تلك الحالات -مهما شابهت الأخلاق في ظاهرها- لا تكون قبل خضوعها للعقل

سوى اندفاع الطبع المجرد من الإرادة. فمثلا، إننا لا نعتبر الكلب ذا خلق، ولا الماعز ذا أدب.. لكونهما يألفان صاحِبهما ويتذللان له. كما أننا لا نسمي الذئب أو الأسد ذميم الأخلاق لشراسة طبعهما، بل إن الحالة الأخلاقية -كما تَقدم- تبتدئ بعد ظهور الحصافة والحزم ومراعاة الظروف. فالإنسان الذي لا يستخدم عقله وحزمه في شؤونه هو كمثل الطفل الرضيع الذي لم تسيطر القوة العقلية بعد على قلبه ودماغه، أو هو كالمجنون الذي فقد قوى العقل والفكر تماما. ولا يخفى أن مثل هذا الإنسان قد تصدر منه أحيانا أفعالٌ تشابه الأخلاقَ، ولكن العاقل لا يعدها من الأخلاق في شيء.. لأنها لا تصدر عن تمييز وبصيرة، بل تنبعث من تلقاء نفسها كلما سنح لها دافع طبعي. فمثلا المولود يُقبل على ثدي أمه حالما يولد، والفرخ بعد الفقس يركض نحو الحَب، وكذا صغار العَلق تَرِثُ عادات كبارها، وأولاد الأفاعي تبدي عادات الأفاعي، والأشبال تظهر طباع الأسود. وانظروا بالأخص إلى الطفل البشري كيف يبدي الطبائع البشرية فورَ ولادته، فمتى بلغ سَنة أو سنين من عمره.. تكشفت تلك الطبائع أكثر فأكثر، فلا يبكي مثلا كبكائه الأول بل يرفعه قليلا، ويصير ضحكه قهقهة، وتلوح في عيونه أماراتُ نظرات متعمدة. وكذلك يبدو منه في هذا العمر ميل

جديد، فهو يُظهر رضاه وسخطه بحركاته، ويبدو منها أنه يريد إعطاءِ أحد أو ضرب أحد، ومع هذا فلا تكون هذه الحركات إلا طبْعية في الواقع.

والإنسان الهمجي المتوحش.. الذي لم يُعطَ من العقل والآداب الإنسانية إلا القليل.. يشبه الوليدَ، فإنه أيضا لا يزال يتبع ميول طبعه، ويذعن لها في جميع أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، فلا يصدر منه شيء عن تفكير وتدبر من قواه الباطنة، بل كل ما ينطوي عليه طبعه يصدر عنه بحسب البواعث الخارجية. نعم، قد لا تكون جميعُ ميوله الطبْعية بسبب البواعث الخارجية شرا، بل يمكن أن يكون بعضها مشابها للأخلاق الفاضلة، غير أنها تخلو من التفكير وإمعان النظر، وإذا صاحَبَها بعض التعقل فلا اعتبار له بسبب غلبة نوازع الطبع، لأن الاعتبار إنما يكون بجانب الكثرة.

الأخلاق الحقيقية

زبدة القول إنه لا يجوز أن تُنسَب الأخلاق الحقيقية إلى الذي كان أسيرًا للميول الطبْعية ويعيش عيشة الوحوش في معظم الأحوال، شأنه شأن البهائم والأطفال والمجانين. إن فترة الأخلاق الصالحة أو غير الصالحة تبتدئ في الحقيقة عندما ينضج العقل

الموهوب للإنسان فيستطيع به التمييز بين الخير والشر، أو بين شرين أو خيرين، ويجد في نفسه حسرة متى حاد عن طريق الخير، ويندم ويأسف عندما يقترف السوء. هذا هو الدور الثاني من أدوار الحياة البشرية الذي عبر عنه كلام الله القدسي في القرآن المجيد بالنفس اللوّامة.

ولكن يجب أن تتذكروا أن المتوحش لا يكفيه الوعظ السطحي البسيط وحده كي يصل إلى درجة النفس اللوامة، بل لا بد من أن ينال من معرفة الله نصيبا يدرك به أنه لم يُخلق عبثًا ولغوا، ولكي تنشأ فيه الأخلاقُ الحقيقية بسبب هذه المعرفة الإلهية. ومن أجل ذلك نبه القرآن الحكيم -فيما وعظ به الإنسان - إلى معرفة الإله الحق، وأكد له أن لكل عمل أو خُلق نتيجةً تورث صاحبه في الدنيا نعيما روحيا أو عذابا روحيا، ثم تنكشف تلك النتيجة في الحياة الآخرة انكشافا كاملا.

والخلاصة أن الإنسان - في حالة النفس اللوّامة - ينال من العقل والعرفان والوجدان الصحيح نصيبا بحيث يلوم نفسه على عمل السوء، ولا يفتأ يرغب في العمل الصالح ويحرص عليه. وهذه هي الحالة التي يكتسب فيها الإنسان الأخلاق الفاضلة.

الخَلق والخُلق

ويجدر بي أن أعرف هنا كلمةَ الخُلُق باختصار. فاعملوا أن الخَلْق اسم للتكوين الظاهري، وأن الخُلُق اسم للتكوين الباطني النفسي. وبما أن الخِلْقة الباطنة إنما تتكامل بالأخلاق وليس بالميول الطبْعية وحدها، لذلك أُطلق لفظ الخُلُق على الأخلاق دون الميول الطبْعية.

ومن المناسب أيضا بيان أنه من الخطأ الفاحش ما يزعمه الناس عامة أن الخُلُق إنما هو عبارة عن الحلم والرفق والتواضع. كلا، بل المراد بالخُلُق جميع كيفيات الكمال البشري التي أُودعت باطنَ الإنسان مقابل أعضائه الظاهرة. مثلا.. يبكي الإنسان بالعين، وتقابل هذا البكاء قوةٌ في النفس هي رقة الفؤاد؛ فإذا استعملها الإنسان في محلها باسترشاد من العقل الموهوب له صارت خُلُقا. وكذلك يقاوم الإنسانُ العدو بيديه، وتوازي هذه الحركةَ الظاهرية قوةٌ في النفس.. هي الشجاعة؛ فإن استخدمها الإنسان طبقا لما يلائم الموقف أصبحت أيضا خُلُقا. وكذلك يريد الإنسان أحيانا استخدامَ يديه لإنقاذ المظلوم من الظالم، أو لإعطاء العاجز المعدم شيئا، أو لخدمة بني نوعه بطريق آخر.. فهذه الحركة تماثلها

في النفس قوةٌ هي الرحمة. وأحيانا يعاقِب الظالِمَ بيديه، ونظيرُ هذه الحركة الجسدية قوةٌ في القلب نسميها الانتقام. وتارةً يستنكف الإنسان أن يقابل المعتديَ بالمثل فيصفح عنه، وبإزاء هذه الحركة قوةٌ في النفس تسمى العفو والصبر. وطورا يستخدم يديه أو رجليه أو عقله لخير بني نوعه، ويبذل ماله لنفعهم، وتقابل هذه الحركة قوةٌ في النفس تُدعَى السخاء والجود. فإذا استعمَل الإنسان جميع هذه القوى في مواضعها وظروفها الملائمة سميَت أخلاقا.

يخاطب الله جل شأنه نبينا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٥). ومعنى هذه الآية - طبقا للشرح المذكور - إنك مستوعب لجميع أقسام الأخلاق من سخاء، وشجاعة، وعدل، ورحمة، وإحسان، وصدق، وهمة، وما شاكلها. وباختصار: فإن جميع القوى الطبْعية الموجودة في الإنسان مثل الحشمة والحياءِ والأمانة والمروءة والغيرة والاستقامة والعفة والزهد والعدل والمواساة والشجاعة والجود والعفو والصبر والإحسان والصدق والوفاء وما شابهها من الحالات الطبْعية.. إذا أظهرها الإنسان في أوقاتها ومواضعها الملائمة بإعمال الفكر وإيماء العقل، كانت كلها أخلاقا. إنها في الأصل غرائز الإنسان، وإنما تُسمى

أخلاقا عندما يتصرف فيها بالإرادة حسب اقتضاء الزمان والمكان. وبما أن من خصائص الإنسان الطبْعية أنه كائنٌ قابل للرقي والتقدم.. لذلك يستطيع أن يبدل طباعه هذه إلى أخلاق باتباع الدين الحق والتعاليم الحسنة، والصحبة الصالحة.. الأمر الذي لا يتصف به كائنٌ آخر.

الإصلاح القرآني الأول

إصلاح الحالات الطبْعية

نذكر الآن من إصلاحات القرآن المجيد الثلاثة الإصلاحَ الأول، الذي يهدف إلى تقويم أدنى الحالات الطبْعية. وهذا الإصلاح يُسمى في مصطلح الأخلاق بالأدب، وأعني به الأدبَ الذي يجعل المتوحشين معتدلين في أوضاعهم الطبْعية كالأكل والشرب والزواج وغيرها من أمور التمدن الابتدائي، وينجيهم من الحياة الوحشية المشابهة لحياة البهائم والسباع، كما ذكر الله تعالى جميع هذه الآداب في كتابه العزيز بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (النساء:٢٤)

وقوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ٢٠)

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (النساء: ٢٣)

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة:٦).

والمحصنات أي العفيفات. ومحصنين أي متزوجين إياهن. والمراد من مسافحين أن نساء بعض جهلاء العرب إذا لم يولد لهن ولدٌ طلبنه بالزنا، فهذه العادة القبيحة هي المسافحة. والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٦) أي لا تنشئوا معهن صلات مصاحبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النساء:٣٠).. أي لا تقضوا على حياتكم بالانتحار.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ﴾ (الأنعام: ١٥٢)

وقوله تعالى: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتى تَسْتَأْنسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ (النور: ٢٨-٢٩).. أي لا تدخلوا بيوت

الآخرين بدون إذن دخول المتوحشين الهمج.. فالاستئذان شرط ضروري.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة: ١٩٠).. أي لا تدخلوا البيوت متسلقين من ظهورها، بل ادخلوها من أبوابها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء: ٨٧)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٩١).. أي شرب الخمر ولعب القمار وعبادة الأصنام والتطير كلها أعمال شيطانية نجسة يجب أن تجتنبوها.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصُبِ﴾ (المائدة:٤).. أي حرام عليكم تناول لحم حيوان ميّت أو ما ذُبح باسم غير الله؛ أو ما مات اختناقًا أو بضربة أو بسقوط من فوق أو منطوحا، أو افترسه أحد الضواري.. إلا إذا ذبحتموه قبل موته، أو ما ذُبح لأجل صنم، فهذه الأشياء في حكم الميتة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٥).. أي إذا سألوك ماذا يأكلون حلالا إذن، فقل لهم: كُلوا من كل طيبات الدنيا. فقط اجتنبوا أكْلَ الميتة وما في حكمها.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ (المجادلة: ١٢).. أي إذا طُلب منكم أن تفسحوا مكانا في المجالس لجلوس الآخرين فافسحوا لهم من فوركم، وإذا قيل لكم اتركوا أماكنكم من المجلس فاتركوها بدون تردد أو تذمر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣٢).. أي كلوا من الطيبات.. من لحم أو بقول وغيرهما، ولكن لا تُكثروا من شيء دون شيء، وتجنَّبوا الإكثار من الأكل.

﴿وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٧١).. أي اجتنبوا اللغو من القول وانطقوا بما يليق بالمقام.

وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر: ٥-٦).. أي اغسلوا الثياب وصونوا البدن والبيت والطريق وكل مجلس ومقام من الأوساخ والأقذار، واعتنوا بالنظافة بجميع الوسائل.

وقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (لقمان: ٢٠).. أي الزم الوسطَ في سيرك، فلا تبالغْ في السرعة أو

البطء إلا عند الضرورة، والزمِ الاعتدالَ في صوتك فلا ترفعْه كثيرا ولا تخفضه كثيرا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٨).. أي إذا سافرتم فاتخِذوا كل تدبير، وخذوا معكم زادا كافيا لتتجنبوا التسول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة: ٧).. أي عليكم بالطهارة في حالة الجنابة.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠).. أي إذا أكلتم فأعطوا السائل والمحروم من البشر أو الحيوانات من كلب أو طير ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء: ٤-٥).. أي إذا كان هناك فرصة فلا بأس من أن تتزوجوا من فتيات يتيمات هن في كفالتكم. ولكن إذا خفتم من عدم العدل في حقهن - لأنهن لا أولياء لهن - فتزوجوا من نساء ذوات آباء وأقارب تخشونهم. يمكن أن تتزوجوا واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، ولكن بشرط العدل في حقهن، فإذا خفتم

ألا تستطيعوا العدل فاكتفوا بواحدة رغم حاجتكم إلى أكثر. وقد حددنا عدد الزوجات بالأربع منعا لكم من عاداتكم القديمة في الإفراط الزائد في أمر الزواج حيث كنتم تتزوجون المئات، أو إنقاذا لكم من السقوط في هوة الزنا. وأدوا لزوجاتكم مهورهن.

هذا هو الإصلاح الأول من القرآن الكريم؛ حيث انتزَع الإنسانَ من طباعه الهمجيّة ووجهه إلى لوازم الإنسانية ومبادئ التمدن. و لم يتناول في هذا التعليم بعدُ الأخلاق الفاضلة، بل إنْ هو إلا الآداب الإنسانية الابتدائية.

وقد قلنا سابقا إن الحاجة مست إلى هذا التعليم الابتدائي لأن الأمة التي بُعث نبينا محمد ﷺ لإصلاحها كانت من أكثرَ الأمم همجيةً. لم يكن قد بقي لديها شيء من الآداب الإنسانية في أي شأن من الشؤون، لذلك كان من الضروري تعليمها هذه الآدابَ الإنسانية الأولية قبل كل شيء.

العلة في تحريم لحم الخنـــزير

ههنا حكمة جديرة بالذكر، وهي أن الله عندما حرم الخنـــزير جعل في اسمه ما يشير إلى تحريمه أصلا، لأن لفظ الخنـــزير مركب من كلمتين هما (الخنـــز) أي فاسد جدا، وكلمة (أر) وهي مشتقة

من أرى، فيكون معنى الاسم المركب: (أراه فاسدًا جدًا). فالاسم الذي سمى الله به هذا الحيوان منذ الابتداء إنما يدل على خبثه. ومن المصادفات العجيبة أن اسمه في الهندية (سؤر)، وهذا أيضا مركب من كلمتين: (سوء) و (أر).. أي أراه سوءً.

ويجب ألا يُستغرب من قولنا هذا فيقال كيف يمكن أن تكون الكلمة الهندية (سؤر) عربيةً؛ ذلك أننا أثبتنا في كتابنا (مِنن الرحمن) أن العربية هي أُم الألسِنة جميعها، وأن كلماتها توجد بالآلاف في جميع اللغات الأخرى.

إن كلمة (سؤر) عربية ومرادفها في الهندية (بَدْ) ولهذا يُدعَى الحيوان المذكور في هذه البلاد (بَدْ).. أي سيئ أيضا. ويبدو أن الحيوان المذكور كان مشهورا في البلاد الهندية بالاسم العربي المرادف للخنــــزير حينما كانت العربية لغة العالم كله، ثم لم يزل فيها حتى الآن كأثر مذكور، وإنْ كان قد طرأ عليه في اللغة السنسكريتية من النحت والقلب ما غير شكله الأصلي. ولكن الاسم الصحيح الموضوع للحيوان هو ذلك الاسم لا غير، لأنه يشتمل على علة التسمية التي يدل عليها لفظ (الخنــــزير).

وأما معنى (فاسد جدا) فهو لا يحتاج إلى شرح. مَنْ ذا الذي لا يدري أن هذا الحيوان أشد حرصًا على النجاسات من جميع

الحيوانات الأخرى، وأنه فوق ذلك وَقِحٌ دَيُّوثٌ؟ والعلة في تحريمه ظاهرة وهي أن قانون الفطرة يقضي بأن تأثير لحم هذا الحيوان النجس الخبيث في الجسم والروح لا بد أن يكون تأثيرا خبيثا. وقد أثبتنا فيما مضى أن الأغذية تفعل فعلها في جسم الإنسان حتمًا، فهل بعد ذلك من شك في أن تأثير الخبيثِ خبيث؟ ولقد كان الأطباء اليونان قبل الإسلام أيضا يرون أن لحم هذا الحيوان يقلل من الحياء، ويزيد في الديوثية على وجه الخصوص.

والميتة أيضا لم تحرم في الشريعة الإسلامية إلا لأنها تصبغ آكلها بصبغتها، كما أنها تضر بالصحة الجسمانية. ويدخل في حكم الميتة جميعُ الحيوانات التي يبقى دمها بداخلها عند الموت كالمنخنقة والموقوذة وغيرهما. وهل يمكن أن يبقى الدم على حالته الأصلية إذا بقي في بدن الميت؟ كلا، بل لا يلبث أن يفسد لرطوبته، ويسري فساده إلى سائر الجثة، كما أن خلايا الدم - التي ثبَتَ وجودُها بالفحوص العصرية - سوف تبث في سائر الجسم عفونةً سامة جدا.

الإصلاح القرآني الثاني

إصلاح الحالات الأخلاقية

القسم الثاني من إصلاحات القرآن المجيد هو تحويل الحالات الطبْعية -بضبطها بشروط ملائمة- إلى أخلاق فاضلة. وهذا القسم واسع جدًّا بحيث لو أردنا ذِكره ههنا مفصلا.. أي لو أردنا سرد جميع الأخلاق الحميدة التي بينها القرآن المجيد.. لطال هذا المقال بحيث لن يكفي الوقت المخصص له ولا حتى لعُشره، لذلك نوجز القول ونِلم بأمثلة من تلك الأخلاق.

تقسيم الأخلاق

اعلموا أن الأخلاق قسمان: قسم يمكن الإنسان من ترك الشر، وقسم آخر يمكنه من إيصال الخير إلى الآخرين.

ويندرج تحت القسم الأول جميعُ الأخلاق التي يحاول بها الإنسان ألا يصيب أحدا في ماله أو عِرضه أو نفْسه باللسان أو اليد أو العين أو بأي عضو من أعضائه، أو لا ينوي به إساءةً أو إهانة.

والمراد بالقسم الثاني سائرُ الأخلاق التي يسعى بها الإنسان لنفع أحدٍ في ماله أو عرضه.. باللسان أو اليد أو المال أو العلم أو بأي طريق آخر من طرق الخير؛ أو ينوي على الأقل أن يرفع شأنه ويُظهر عزته. أو إذا ظلمه أحدٌ امتنع عن إنــــزال العقاب الذي استوجبه، وهكذا ينفعه بحمايته من معاناة الأذى والتعذيب البدني والغرامة المالية؛ أو عاقَبه عقابا يكون في الحقيقة رحمة له من كل الوجوه.

أخلاق تندرج تحت ترك الشر

وليكن واضحا الآن أن الأخلاق التي قدرها الخالق لترك الشر لها أربعة أسماء في اللسان العربي الغني بكل ما يحتاج إليه من مفردات للتعبير عن جميع خواطر الإنسان وأوضاعه وأخلاقه. فالخُلُق الأول يسمى الإحصان، والمراد به ذلك العفاف الذي يختص بالشهوة الجنسية بين الذكر والأنثى. فالمحصن أو المحصنة هو من يجتنب الفجورَ أو حتى مقدماته، وهكذا يمنع عن نفسه عن الفحشاء التي لا تكسبه سوى الذلة واللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، بالإضافة إلى الخسارة العظيمة لأقربائه، علاوة على الفضيحة العائلية. فلا يخفى أن من ارتكب الزنى مع امرأةِ رجل آخر، أو على الأقل بدت من الاثنين مقدماتُ الزنى ومبادئه، فإن زوجها المظلوم الغيور

سيضطر إلى تطليقها، لأنها فعلتْ الفاحشة أو رضيتْ بها. ثم لو وضعت مولودا منه لحدثت فتنة كبيرة. فبسبب هذا اللئيم يتكبد رب البيت هذه الخسارة كلها.

واعلموا أن صفة الإحصان أو العفاف هذه لا تُعَد خُلقا إلا متى استعصم صاحبُها مع قدرته على سوء النظر أو ارتكاب الفاحشة؛ أي أنه يتعفف عن هذه الفعلة الشنيعة مع امتلاكه من القوى الطبْعية ما يستطيع به اقترافَها. أما إذا كان الإنسان فاقدا القوى الجنسية لحداثة سنه أو لكونه عنّينًا، أو لأنه مخنث، أو عجوز فانٍ، فلا يصح عندئذٍ أن نصِفه بخُلق الإحصان أو العفاف. صحيح أن عنده حالة طبْعية من العفة، ولكن مثل هذه الحالات الطبْعية -كما قلنا مرارا- لا تسمى أخلاقا إلا إذا صَدَرت، أو تهيأت لأن تصدُر، في محلها بتوجيه العقل. لذلك فالأطفال، أو الذين بهم عُنّة، أو الذين عطلوا قواهم الجنسية بطريق أو آخر، لن يوصفوا بهذا الخُلق وإن عاشوا في الظاهر حياة عفافٍ وإحصان، بل لا تكون عصمتهم هذه في جميع الأحوال المذكورة إلا حالةً طبْعية لا غير.

طرق العفة والإحصان

وبما أن هذا الفعل القبيح ومقدماته يمكن أن يصدر من المرأة كما يمكن صدوره من الرجل، لذلك أرشد الله كلا الجنسين في كتابه الشريف بقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إن اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِن ... وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١-٣٢).. أي على المؤمنين أن يكفّوا عيونهم عن رؤية المحارم، ولا يحدقوا بالنساء اللواتي ربما كن مثارا للشهوة، وأن يتعودوا في هذه المناسبات على غضّ البصر، أي النظر بطرف فاتر، ويستروا عوراتِهم قدر الإمكان. وكذلك يجب أن يصونوا آذانهم، فلا يسمعوا أغاني الأجنبيات وألحانهن، ولا يصغوا إلى أحاديث جمالهن، فإن ذلك أفضل طريق لطهارة العيون ونـــزاهة القلوب.

ثم يأمر النساء بمثل ذلك ويقول: قل لهن أيضا أن يحمين عيونهن من رؤية غير المحارم؛ وكذلك يحمين آذانهن منهم.. أي لا يسمعن أصواتهم المثيرة للشهوة؛ وأن يسترن أماكن الستر منهن، ولا يكشفن

مواضع الزينة لهم؛ وأن تضع المرأة خمارها على رأسها بحيث يغطي الجيبَ مع الرأس.. أي يستر الجيب والرأس والأذن والصدغ؛ وأن لا يضربن أقدامهن بالأرض كالراقصات.

هذا هو التدبير الذي إذا اتخذه الإنسان يمكن أن ينجو من العثار.

والتدبير الثاني هو أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويبتهلوا إليه ليحميهم من العثار وينجيهم من الزلل.

ثم يقول الله عَجَلَّ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾ (الإسراء: ٣٣).. أي ابتعدوا عن كل ما يدفعكم حتى إلى التفكير في هذه الفاحشة، ولا تسلكوا طرقًا فيها خطرُ الوقوع في هذه المعصية، فإن الذين يرتكبون الزنى يبلُغون السيئةَ ذروتَها. إن سبيل الزنى سيئ جدا.. إذ يحول دون غايتكم ويُشكل خطرا شديدا على هدفكم الأخير.

وقال الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ (النور: ٣٤).. أي أن على الذين لا يجدون فرصةً للزواج أن يحافظوا على عفتهم بطرقٍ أخرى، كالصيام أو التقليل من الطعام أو استهلاك القوى في أعمال بدنية شاقة.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَهْبَانِيةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٨).. أي أن

هناك أناسا ابتدعوا بأنفسهم طُرقا لذلك: كأن كَفّوا عمدًا عن الزواج إلى الأبد، أو عطلوا قواهم الجنسية بطرقٍ مصطنعة ليكونوا كالمصابين بالعُنّة، أو ترهبوا بأي طريقٍ آخر؛ ولكنا لم نفرض ذلك عليهم، ومِن ثَم فشلوا في العمل بهذه البدعات تماما.

وقوله تعالى إننا ما كتبنا على الناس أن يترهبوا.. يشير إلى أننا لو كنا فرضناه عليهم لاستطاع الجميعُ العملَ به؛ وبالتالي لأدى ذلك إلى القضاء على أهل الدنيا من زمن بعيد بانقطاع النسل الإنساني.

ثم إن الاستعفاف بِبَتْر عضو التناسل ليس إلا اعتراضًا على الصانع الحكيم الذي خلق ذلك العضو. ثم إن الثواب كله يتوقف على وجود قوة الشهوة أولا، وعلى مقاومة الإنسان المستمرة لنزعاتها الفاسدة خشيةً من الله، وعلى استفادته من تلك القوة.. لينال نوعين من الثواب. وما دام الأمر كذلك، فمن البديهي أن بتر العضو يحرم الإنسان من الثوابين، لأن الثواب إنما يتحقق بوجود الشهوة الثائرة وقمعها. فأين الثواب إذا انعدمت تلك الشهوة وأصبح الإنسان كالطفل؟ وهل يُثاب الطفل على عفافه؟

خمسة طرق للعفاف

إن الله تعالى لم يشَرع في الآيات المذكورة تعليما ساميا يُكسب الإنسان خُلُق الإحصان أي العفاف فحسب، بل وصف خمسة علاجات أيضا لذلك، وهي: غضّ البصر؛ أي صرْفُه عما لا يحل له رؤيته؛ وحفظُ السمع عن صوت غير المحارم، وعدمُ الإنصات إلى أوصاف جمالهن؛ ومنعُ النفس عن كل ما يؤدي إلى هذا الإثم؛ والصومُ وما شابهه في حالة العزوبة.

وهنا نعلنها مدوّيةً أن الإسلام وحده يمتاز بهذا التعليم الأسمى الشامل لكافة التدابير اللازمة، والمذكور في القرآن المجيد.

ثَمّة حكمةٌ جديرة بالذكر، وهي أن الحالة الطبْعية التي هي منبع الشهوات، والتي لا يتحرر منها الإنسان إلا بعد تحول كامل.. إنما تتمثل في أن نــــزعاته الشهوانية لا تلبث أن تضطرم عندما تُصادف مواقعَ الإثارة، أو بألفاظ أخرى: إنها تصبح في خطر شديد عندئذ.. لذلك لم يُبِح الله لنا أن ننظر إلى المحارم بلا حرج، ونتطلع إلى زينتهن، ونشاهد رقصهن وما إلى ذلك حتى بالنظر الطاهر؛ وكذلك لم يَسمح لنا أن نسمع من الأجنبيات الشابات الغناء والموسيقى، أو نستمع لقصص حسنهن وجمالهن ولو بنية صالحة. كلا، بل وصانا ألا ننظر إلى غير المحارم وإلى أماكن زينتهن أبدا، لا بالنظر الطاهر

ولا بالنظر الخبيث؛ وألا نسمع كذلك أصواتَهن ذات الألحان والغناء وألا نصغي إلى قصص جمالهن، لا بالنية الصالحة ولا بغيرها، بل علينا أن ننفر من كل ذلك كما ننفر من الجيفة.. لكيلا نعثر، لأنه لا بد وأن نتعرض يوما للعثار بسبب هذه النظرات الطليقة. فبما أن الله سبحانه وتعالى يريد أن تبقى أبصارنا وقلوبنا وخواطرنا جميعها مصونةً، لذلك فقد أرشدنا لهذه المبادئ السامية. فأي شك في أن التحرر المطلق يؤدي إلى العثار والسقوط؟ أوَليس من الخطأ الفاحش أن نضع أمام الكلب الجائع أرغفة ناعمة.. ثم ننتظر منه أن لا يمر بباله أي خاطر عن الرغيف؟ لذلك فقد أراد الله تعالى ألا تتاح للقوى النفسانية فرصةُ نشاط خفي أيضا، وأنْ لا يتعرض الإنسان لموقف يهيج خواطرَ السوء فيه.

الحكمة من الحجاب الإسلامي

هذه هي الحكمة من الحجاب الإسلامي. وهذه هي الهداية الشرعية فقط. لم يقصد كتابُ الله بالحجاب اعتقالَ النساء وحبسهن كالأسرى، ذلك ظن الجهلة الذين لا يعلمون عن المبادئ الإسلامية شيئا. إنما المقصود من الحجاب الإسلامي كفُّ النساء والرجال

جميعا عن إلقاء نظراتٍ حرة، وكشفِ زيناتٍ للجانب الآخر، وتبرُّجِ الجاهلية.. لأن في الكف عن كل ذلك مصلحةَ الجنسين.

كما يجب أن نتذكر أيضا أن غضّ البصر في لغة العرب هو أن ينظر الإنسان بعين فاترة.. بحيث يصون نظرَه عما لا تحِلّ رؤيته، ولا ينظر إلا إلى ما يجوز النظر إليه. وكل من يريد تزكية نفسه لا ينبغي له أن ينطلق ببصره كالحيوان حيث يشاء من دون قيد ولا ضابط، بل عليه أن يُعوّد نفسَه غضَّ البصر في هذه الحياة المتمدنة، وبهذا السلوك المبارك تتحول عادته الطبْعية هذه إلى خُلقٍ عظيم دون أن يتعارض ذلك مع ضرورات حياته الاجتماعية شيئًا. وهذا هو الخلق الذي يسمى الإحصان والعفة.

خُلق الأمانة

والقسم الثاني من أقسام ترك الشر.. هو ذلك الخُلُق الذي يُعرَف باسم الأمانة.. أي تجنب إيذاء الغير بالاستيلاء على ماله بسوء النية وابتغاء الشر.

وليكن واضحا أن صفةَ الأمانة حالةٌ من حالات الإنسان الطبْعية، حتى أن الطفل الرضيع ذا السذاجة الطبْعية لصغر سنه، والذي لم يأخذ بعد في العادات القبيحة.. ينفر من مال غيره لِدَرجة أنه قَلما

يرضع من غير أمه إلا بصعوبة بالغة، وإذا لم يُرضَع من مرضِع أخرى وهو صغير لم يَعِ بعد، فإنه استرضاعه من غير أمه بعد ذلك يصعب جدا، ويعاني مشقة عظيمة لدرجةٍ قد يُشرف بها على الموت، ويَكرَه مع ذلك رضاعة الغير؛ فهو ينفر بطبعه من أن يترك ما عند والدته إلى ما عند سواها. فما هو السر في هذا النفور الشديد يا ترى؟

وإذا نَظَرْنا في عادة الرضيع هذه وأمعنا في تأملها وتدبرها لاتضح لنا بجلاء أن نفوره الشديد مما هو مُلكٌ لغيره بحيث يعاني بسببه مشقةً بالغة.. إنما هو المنبع الأول لصفة الأمانة. ولن يكون الإنسان صادقا في خُلُق الأمانة ما لم يجد في نفسه -كالطفل- كراهية تامة ونفورا حقيقيا مما هو للغير.

غير أن الطفل لا يستعمل هذه العادة في محلها، ويتكبد بجهالته معاناةً شديدة، فليست عادته هذه إلا حالةً طبْعية يُظهرها بلا روية ولا اختيار، ولذلك فهي لا تُعتبر من الخُلُق في شيء، وإن كانت هي المَنْشأ الأول للأمانة في الفطرة البشرية. فكما أنه لا يجوز أن يُدعى الطفل أمينا ذا تدين بسبب عادته الطبْعية الفطرية، كذلك لا يجوز أن يوصف بالأمانة مَن لا يتصرف في طبيعته هذه بمقتضى الحال. إن الاتصاف بالأمانة أمر عظيم جدا، ولن يكون الإنسان أمينا حتى يستوفي جميع شروط الأمانة من كل الوجوه.

ونقدم فيما يلي -كمثال- آياتٍ أرشدنا الله بها إلى طرق الأمانة وآدابها.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦-٧).

ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠-١١).. أي أنه إذا كان بينكم صاحب مال ضعيف العقل.. كأنْ يكون يتيما لم يبلغ سن الرشد، وخشيتم أن يضيع ماله بسفاهته.. فعليكم -كأمناء على أموالهم- ألا تضعوا في أيدي مثل هؤلاءِ الحمقى كل رأس المال الذي هو قوام المعيشة ومدار التجارة، وأعطُوهم منه بقدر ما يحتاجون إليه للطعام والكسوة، وقولوا لهم قولا معروفا مما يُنمي عقولَهم وشعورهم ويربيهم بما يلائم أحوالهم حتى لا يبقوا جاهلين عديمي الخبرة. فمن كان منهم ابن تاجر مثلا فعلموه طرقَ التجارة، ومَن كان أهله

أصحاب صناعة فدربوه على ما يناسب هذه الصنعة، ولا تدَعوهم هكذا بل قوموا باختبارهم وامتحانهم بما علمتموهم من حين لآخر. حتى إذا ما أدركوا سن البلوغ –وهو العام الثامن عشر من عمرهم تقريبا– وشعرتم أنهم أصبحوا أهلا لتدبير أموالهم بالعقل والحزم.. فادفعوا إليهم أموالهم. ولا تنفقوا أموالهم بالإسراف، ولا تضيعوها خوفا من أن يكبروا فيستردوها. ومن كان غنيا فلا ينبغي له أن يأخذ أجرًا على كفالته. أما إذا كان الكفيل فقيرا فليأخذ من أموالهم بحسب المعروف. كان من عادة العرب عندئذ أن الكفلاء إن ابتغوا شيئا من أموال الأيتام حاولوا قدر الإمكان أن يأخذوا لأنفسهم قسطا مما ربحته تجارةُ تلك الأموال، وألا يستهلكوا رأس المال بتاتا. ويشير الله هنا إلى نفس هذه العادة ويأمر باتباعها.

ثم قال: فإذا دفعتم إليهم أموالهم فافعلوا ذلك بمحضر من الشهود، ومن حضره الموت وكان له أولاد ضعاف غير بالغين فلا يحق له أن يوصي بما يجحف بحقوقهم.

فانظروا كم من آداب الأمانة بينها الله تعالى ههنا! فالأمانة الحقيقية هي تلك التي تستوفي جميعَ هذه الشروط.. وإلا فإن الأمانة التي لا تُراعى فيها جميعُ هذه الشروط بحذر تام، لا بُد من أن تتسرب إليها أنواع الخيانات الخفية.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر:

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ الناسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩).. أي لا تستولوا على أموال الناس بغير الحق، كما لا تقدموا أموالكم لأصحاب السلطة كرشوة لاغتصاب أموال الناس بمساعدة الحكام.

ويقول تعالى: ﴿أن اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٩).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٩).

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الإسراء: ٣٦).. أي إذا كِلْتم الأشياء فكيلوها بميزان وافٍ مستوٍ لا خلل فيه.

ويقول تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٤).. أي لا تضروا بأموال الناس بأي طريق، ولا تسيروا في الأرض بنية الفساد.. أي السرقة أو الإغارة أو اختلاس أموال الناس بانتشال ما في الجيوب أو بأي طريق آخر.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ (النساء: ٣) .. أي لا تعطوا الرديء مكان الجيد، بمعنى: أنه كما لا يحل لكم أن

تغتصبوا أموال الناس بغير الحق، كذلك لا يحل لكم أن تبيعوهم المغشوش من الأشياء، أو أن تعطوهم الرديء بدل الجيد.

لقد بين الله تعالى في الآيات المذكورة أعلاه طرقَ الخيانة كلها، وقد جاء بكلامٍ وافٍ بحيث ما ترك طريقا من طرق الخيانة إلا ذكره. لم يكتف ﷻ بأن قال "لا تسرقوا".. لئلا يفهم الجاهل أن السرقة وحدها حرام، وأما سواها من أساليب الحرام فهو في حل منها. كلا، بل إن الله حرم بهذا البيان الجامع كل أسلوب غير شرعي، وهذا هو البيان الحكيم. إذن، فالذي لا يتخلق بالأمانة مع هذه البصيرة، ولا يراعي فيها جميعَ هذه الجوانب والشروط.. لن يُعتبر فعله من الأمانة في شيء، وإن تَظَاهر بالأمانة في بعض الأمور، فما هي إلا حالة طبْعية خالية من التمييز العقلي والبصيرة.

التسامح أو المسالمة

القسم الثالث من الأخلاق التي تندرج تحت ترك الشر هو ما يسمى في اللغة العربية بالهُدنة والهَوْن، أي الكف عن إلحاق الأذى بأحدٍ ظلمًا، والابتعادُ عن الشر، والعيشُ بصلح وسلام. ولا ريب أن السلم من أسمى الأخلاق، وأهم وألزم ما يكون للإنسانية.

والقوة الطبْعية في الطفل المماثلةُ لهذا الخُلُق، والتي تصير بعد التعديل خلُقا هي الألفة.. أي الاستئناس. والظاهر أن الإنسان في حالته الطبْعية -أي حين يكون خاليا من التعقل- لا يستطيع أن يفهم معنى السلم ولا حقيقة الحرب، إلا أنه يتمتع عندئذ أيضا بعادة الاستئناس والوفاق، وهذه العادة هي منبع خلق المسالمة. وبما أن هذه العادة لا تكون وقتئذ وليدة التفكر والتدبر والإرادة الواعية فلذلك لا تندرج في قائمة الأخلاق، وإنما تُعَد خُلقا متى كف الإنسان بإرادته عن الشر، وتحلى بخُلُق السلم في محله، واحترز من استعماله في غير موضعه. يعلّمنا الله في هذا الصدد بقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ٢).. أي أصْلحوا فيما بينكم.

ويقول تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٩).

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦٢).. أي إذا مال العدو إلى الصلح وجب عليكم الصلح معهم عندئذ.

ويقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٤).. أي أن عباد الله الصالحين يمشون في الأرض مسالمين.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٣).. أي أنهم لا يجادلون على أتفه الأمور، بل إذا سمعوا عبث القول مما قد يؤدي

للقتال والحرب عالجوه بلباقة، وانصرفوا في وقار. أي أنهم يكرهون الخصام على كل صغيرة وكبيرة.. إلا إذا أصابهم ضرر شديد، لأن من مقتضى الصلح ألا يبالوا بالسفاسف ويعفوا عن صاحبها.

الفرق بين التسامح والعفو

وليكن واضحا أن كلمة "اللغو" الواردة في الآية ههنا تعني في العربية العبث من القول أو الفعل الذي يأتيه أحد بغرض الإيذاء، ولكن لا ينتج عنه في الحقيقة ضرر كبير. فمن مقتضى المسالمة أن يُعاملوا ذلك الشخصَ معاملة الكرام، فيتغاضَوا عما صدر عنه من عبث الكلام أو الحركة.

وأما إذا تجاوز الإيذاء حد اللغو، وعاد بضرر حقيقي على الحياة أو المال أو العرض، فلا يدخل الإعراض عن المعتدي في خُلُق التسامح، وإنما يسمى الإعراض عنه عفوا، وسيأتي ذكر هذا الخلق فيما بعد إن شاء الله.

ثم قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فُصلت: ٣٥).. أي عامِلْ من أساء إليك بالحسنى يكُنْ لك صديقا حميمًا بعد أن كان عدوًا. وبالجملة فإن

التغاضي على سبيل التسامح يكون للفعل العابث الذي لا يعود منه ضرر حقيقي، بل يكون مجرد هذر وثرثرة من قبل العدو.

الرفق والقول الحسن

والقسم الرابع من أقسام ترك الشر هو الرفق والقول الحسن. والحالة الطبْعية التي ينشأ منها هذا الخُلُق هي الطلاقة، أي بشاشة الوجه. والطفل غير القادر على النطق يبدي البشاشة تعبيرا عن الرفق والقول الحسن، إلى أن يقدر على النطق. ووجود هذه الغريزة في الطفل يشكل دليلا على أن الطلاقة هي الأصل الأول الذي يتفرع منه الخُلُق المذكور. الطلاقة مَلكة طبيعية، وأما الرفق فهو خُلُق يتولد من استعمال هذه المَلَكة في موضعها. وإليكم ما أرشدنا الله إليه في هذا الشأن:

يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٤).. أي قولوا لهم ما هو في الواقع خير.

ويقول ﷻ: ﴿لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَّكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُن وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ (الحجرات: ١٢).. قوله تعالى: "لا تلمزوا" أي لا تَصِموا أحدًا منكم بعيب، ولا تدْعوا بعضكم بأسماء قبيحة.

ويقول تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ (الإسراء: ٣٧).. أي لا ترموا أحدا بشيء لا تملكون دليلا عليه، وتَذَكروا أنكم تُسألون عن كل عضو لكم من أذن وعين وقلب وغيرها.

أقسام إيصال الخير

بعد أن انتهينا من ذكر أقسام ترك الشر نتناول الآن أقسام الأخلاق التي تتعلق بإيصال الخير إلى الآخرين.

العفو

فالخُلُق الأول هو العفو عن صاحب الذنب؛ فالذي يصفح عن المسيء إليه إنما يصله بخير. ذلك أن من يرتكب خطأ بحق أحد يستحق به أن يعاقَب بقدر الضرر الذي ألحقه بالغير كأن يُسجَن أو يَدفع غرامة، أو أن ينتقم منه الآخر بيده هو؛ ولكنه لو عفا عنه شريطة أن يكون العفو مناسبا.. لكان هذا بمثابة إيصال الخير إليه.

ويرشدنا القرآن المجيد إلى هذا الخُلُق بقول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٥)

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ (الشورى: ٤١).. أي أن أهل البر هم أولئك الذين يُمسكون عن الغضب عندما يتطلب الموقف منهم ذلك، ويغفرون للناس عندما يقتضي منهم الحال هذا، وإذا عاقبوا المعتدي كان عقابهم بمثل ما اعتُديَ عليهم.

القاعدة في العقوبات.. بأن السيئة جزاؤها سيئة مثلها. فمن عفا عن ذنب أحدٍ عفوًا يترتب عليه إصلاح ولا يؤدي إلى مزيد من الشر.. أي يكون عفوا في محله تماما.. فإنه يُثاب على ذلك.

يتضح من ذلك أن القرآن المجيد لا يأمرنا بترك مقاومة الشر وعدم معاقبة الأشرار والظالمين في كل الأحوال وبدون أي داع لذلك. كلا، بل يرشدنا أن نتبين ما إذا كان الموقف يقتضي العفوَ أم العقوبة، وما هو الأنفع في الحقيقة للمجرم، وكذلك لعامة الخلائق. فأحيانا يدفع العفو المجرمَ إلى التوبة، وأحيانا أخرى يشجعه العفو على المزيد من الإجرام؛ ولذلك يأمرنا الله تعالى ألا نعتاد العفو الأعمى، بل يجب أن نتبين موضعَ الخير الحقيقي أهو في العفو أم في العقاب، ثم نحكم بما يوافق الحالَ والمقام.

إننا إذا استقرأْنا أخلاقَ البشر تبين لنا أنه كما يكون بعضهم حقودا بحيث أنه لا ينسى أحقادَ آبائه، كذلك يكون مِن بينهم مَن يبالغ جدًّا في العفو والصفح، حتى إن هذا العفو المفرط يؤدي بهم أحيانا إلى الديوثية، ويصدر عنهم باسم الحلم والعفو والتغاضي ما يُخجل الإنسانَ وما ينافي تماما الحميةَ والغيرة والعفة، بل يكون وصمة عارٍ على سيرة الإنسان، حتى يتبرأ منه الناس ويلعنوه. ونظرا إلى مثل هذه المفاسد فإن القرآن المجيد اشترط لكل خُلق بأن يكون في محله ويصدر بحسب المقتضى، ولم يقبل من الأخلاق ما يصدر في غير محله.

تَذكروا أن العفو المجرد عن هذه الشروط لا يجوز تسميته خُلُقا، لأنه قوة طبْعية توجد في الطفل أيضًا. أفلا ترون أن الطفل إذا أصابه أحد بإصابة - ولو كانت بقصد الإيذاء - نسيها بعد قليل، وأقبل على من آذاه بكل حب وشوق؟ بل حتى لو كان قد نوى قتلَه فإنه يرضى عنه بعدئذ بحديث حلو منه. فعفوُه هذا ليس من الأخلاق في شيء أبدا. كلا، إن هو إلا قوة طبْعية تصدر عنه تلقائيا، وإنما تدخل هذه في عداد الأخلاق إذا استعملناها في محلها. وقليل هم الذين يستطيعون أن يفرقوا بين القوة الطبْعية والخُلُق. ولقد بينا مرارا أن الفرق بينهما هو أن الخُلُق الحقيقي يستلزم دائمًا مراعاة الحال والمقتضى، وأما القوة الطبْعية فهي تظهر في غير محلها أيضا، وإلا

فإننا نجد بين البهائم أن البقرة وديعة والشاة متواضعة، ولكن بما أنها لم تُمنَح قوة التمييز فلا يمكن أن نقول بأنها متصفة بهذه الأخلاق. إذن فحكمة الله البالغة وكتابه الحق الكامل قد قيدا كل خُلُق بشرط استخدامه في الموضع اللائق.

العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى

والخُلُق الثاني من أخلاق إيصال الخير هو العدل، والثالث هو الإحسان، والرابع هو إيتاء ذي القربى كما يذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩١).. أي أن الله يأمرنا بأن نقابل الحسنة بالحسنة، وذلك هو العدل، وأن نـزيد فوق العدل إحسانا إن كان في محله، ونـزيد على الإحسان إذا اقتضى الموقف فنفعل الخير خالصا بعاطفة فطرية كعاطفة ذي القربى. وينهانا الله عن الفحشاء.. أي أن نتجاوز حدود الاعتدال، أو أن يصدر منا من الإحسان ما ينكره العقل.. أي أن نأتي الإحسانَ في غير محله، أو نكف عن الإحسان في محله، أو نقصر في العمل بمقتضى "إيتاء ذي القربى" مع أن الموقف يتطلب ذلك، أو نفرط فيه متجاوزين الحد المناسب.

هذه الآية الكريمة تتضمن ثلاثَ درجات من إيصال الخير، الأولى: أن تُقابَل الحسنة بحسنة، وهذه أدنى درجة لإيصال الخير، ويستطيع أن يتخلق بهذا الخلق أي واحد ذو صلاحٍ عادي.. فلا ينفك يحسِن إلى من أحسن إليه.

أما الدرجة الثانية فهي أصعب منها نيلا، وهي أن يبدأ الإنسان بالحسنة من تلقاء نفسه، وأن ينفع غيرَه تفضلا منه دون أي حق له. وهذا الخُلُق وسط بين الدرجتين، وكثير من الناس يحسنون إلى الفقراء، بيد أن هذا الإحسان يشوبه عيب خفي.. وهو أن المحسن تحدثه نفسه بأنه قد أحسن.. فيبتغي على إحسانه كلمةَ شكرٍ أو دعاءً على الأقل، وإذا خالفه المحسَنُ إليه اتهمه بأنه ناكرٌ للجميل، أو حمله أحيانا ما لا يحتمل.. ومن عليه بصنيعه. ولذلك يُحذر الله المحسنين بقوله:

﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٥).. أي لا تضيعوا بالمنّة والإيذاء صدقاتِكم التي يجب أن تكون عن صدق، لأن كلمة "الصدقة" مشتقة من الصدق. فإذا خلا قلب المرء من الصدق والإخلاص فلا تبقى صدقَتُه صدقَةً، وإنما تكون عملا من الرياء. وملخص القول: إن في المحسن ضعفا، إذ قد يمن بإحسانه إذا ما أخذته ثورةُ الغضب، فلهذا حذر الله المحسنين هنا.

وأما الدرجة الثالثة من إيصال الخير فقد سماها الله باسم "إيتاء ذي القربى".. وهو ألا يكون في قلب المحسن أي شعور بالإحسان، ولا أي رجاء لتلقي الشكر عليه، بل يجب أن تصدُر الحسنة عن دافع الشفقة التي تكون بين ذوي القرابة القريبة، كما تحنو الأم على فلذة كبدها. وهذه هي أسمى درجات إيصال الخير، وليس وراءها درجة.

غير أن الله تعالى قد جعل جميعَ أقسام إيصال الخير هذه منوطةً بمراعاة المحل والمقام، وصرح في الآية المذكورة بكل وضوح أن كل هذه الحسنات إن لم توضع في مواضعها تصبح سيئات. فسيتحول العدل فحشاء.. أي تجاوُز الحد لدرجة يُستقبح فيها؛ وسيعود الإحسان منكرًا.. أي ما يرفضه العقل والوجدان؛ ويصبح "إيتاء ذي القربى" بغيًا.. أي أن ظهور عاطفة الشفقة في غير موضعها سيؤدي إلى مواقف مكروهة؛ ذلك أن البغي في الحقيقة هو المطر الذي يتجاوز الحد ويدمر الزروع، أو البغي هو تجاوز الاعتدال في أداء الحق. وبالجملة فإن أي قسم من الأقسام الثلاثة إذا صدر في غير محله كان خُلُقًا سيئًا، ولهذا يُشترط أن يكون كل في محله.

وينبغي ألا يغيبنّ عن الذهن هنا أن مجرد العدل أو الإحسان أو الشفقة التي هي كشفقة ذوي القربى، لا يكون خُلُقا في حد ذاته، وإنما هي حالات طبْعية وملكات فطرية توجد حتى في الأطفال قبل

نضوج العقل فيهم. وأما الخُلُق فهو مشروط باستخدام العقل، كما أنه مشروط بأن تستعمل كل قوة في موضعها.

تعليمات أخرى عن الإحسان والعطف

وهناك في القرآن المجيد تعليمات ضرورية أخرى عن خُلُق الإحسان، قد ذكرها الله كلَّها مُعرَّفةً بـــ "أل" ليشير إلى أهمية مراعاة مقتضى الظروف والأحوال عند العمل بها. يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ...﴾ (البقرة: ٢٦٨).. أي أيها المؤمنون، أنفِقوا على الناس على سبيل الجود أو الإحسان أو الصدقة من كسبكم الحلال، أي الذي لم يختلط به شيء من مال السرقة أو الرشوة أو الخيانة أو الغبن أو الظلم، ونـــزهوا قلوبكم عن إنفاق الخبيث من المال.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ (البقرة: ٢٦٥).. أي لا تضيعوا صدقاتكم وصنيعكم بالمن على المحسَن إليه وإيذائه.. يعني لا تعيروا من أحسنتم إليه بقولكم: لقد أعطيناك كذا وكذا؛ ولا تؤذوه، وإلا سوف يضيع صنيعكم، ولا تسلكوا في الإنفاق مسلكا ينم عن المراءاة.

ويقول تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٦).. أي اصنعوا المعروف إلى خلق الله فإنه تعالى يحب صانعي المعروف.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَّشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * ... * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَّيَتِيمًا وَّأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَّلا شُكُورًا﴾ (الإنسان:٦-١٠).. أي أن أهل البر الحقيقي سوف يُسقَون من الشراب الممزوج بالكافور.. أي سوف تُطهر قلوبهم من حرقات دنيوية وحسرات مادية وشهوات خبيثة. فكلمة "الكافور" مشتقة من الكُفر، والكفر في اللغة العربية معناه التغطية والإخفاء، والمراد من سقْي الشراب الكافوري إخمادُ أهوائهم الدنيئة، فيصبحون أنقياءَ البواطنِ، وتسري فيهم طمأنينة العرفان. والمراد من قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَّشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أنهم شاربون يوم القيامة من النبع الذي يحفرونه اليوم بأيديهم. وهنا سر عميق عن حقيقة الجنة، فليفهمه من شاء.

ثم قال: إن من خصال أهل البر الحقيقي أنهم - ابتغاءَ حبِّ الله - يُطعِمون المساكينَ واليتامى والأسرى أطعمةً هُم يحبونها لأنفسهم، ويقولون لهم: إننا لا نُطعمكم مَنًّا وإحسانًا، وإنما نفعل ذلك حبا لله

وابتغاءً لمرضاته، ولا نبتغي على ذلك جزاء ولا كلمة شكر منكم. وفي هذا إشارة إلى أنهم يفعلون هذا المعروف بمحض دافع الشفقة التي تكون تجاه ذوي القربى.

وأيضا قال الله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة: ١٧٨).. أي أن من عادة الأبرار الصادقين أنهم يساعدون أولي الأرحام بالمال حبا وإرضاءً لله، كما ينفقون منه على اليتامى لرعايتهم وتربيتهم وتعليمهم وغير ذلك، وينقذون به المساكين من الجوع والفقر، ويخدمون به المسافرين والسائلين، وكذلك يبذلون منه في تحرير الرقيق وتخليص الغُرماء.

ويقول الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٨).. أي أنهم لا يسرفون في نفقاتهم كما لا يبخلون، بل يتسم سلوكهم عندئذٍ باتزانٍ واعتدال.

ويقول عنهم أيضا: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ٢٢).

ويقول تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:٢٠).. أي المحروم من قوة النطق والسؤال، كالكلاب والهررة والعصافير والبقر والحمير والغنم وغيرها من الحيوانات.

كذلك يقول الله عنهم: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (آل عمران:١٣٥)، ويقول تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَّعَلانِيَةً﴾ (الرعد: ٢٣).. أي أنهم لا يتضايقون من البذل في أيام الرخاء أو في أيام البؤس والقحط، بل لا يبرحون ينفقون حسب الاستطاعة في أيام الضيق أيضا. وينفقون تارة سرا خشيةَ الرياء، وطورا علانية كي يكونوا أسوة للآخرين.

ثم يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَإبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).. أي يجب أن يلاحظ في توزيع أموال الصدقات وغيرها أن توزع أولا على المحتاجين. نعم، يمكن أن يُنفَق شيء منها أيضا على من يقومون بجمعها وحفظها وتوزيعها. كما يمكن إنفاق جزء منها على من يراد إنقاذه من السيئات. كما ينفَق أيضا على تحرير الأسرى والرقيق وعلى مساعدة الغارمين والمنكوبين المحتاجين، وعلى كل سبيل آخر هو من سبل الله تعالى حقيقةً.

ويقول تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرِّ حَتى تُنْفِقُوا مِما تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٣).. أي لن تكسبوا البر الحقيقي أبدا ما لم تنفقوا على الناس شفقة بهم من مالكم الذي تحبونه.

ويقول تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٧).. أي أَدُّوا للفقراء حقوقَهم، وآتُوا المساكين، واخدموا المسافرين، وتَجنّبوا الإسراف بكل صوره.. أي اجتنبوا التبذير الذي تُهدَر فيه الأموال بلا طائل في تقاليد وطقوس مختلفة.. كحفلة عرس أو ميلاد طفل وغيرهما من طرق اللهو واللعب.

وأيضا يقول عَجَلَّ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السبيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٣٧-٣٨).. أي اصنعوا المعروف بالوالدين،، وافعلوا الخير للأقارب والأيتام والمساكين والجار القريب والجار الأجنبي والمسافر والخادم والعبد والحصان والغنم والبقر والحيوانات الأخرى التي هي تحت تصرفكم، ذلك لأن الله الذي هو إلهكم يحب هذه الخصال؛ ولا يحب من لا يهتم بغيره ولا يفكر إلا لنفسه؛ كما أنه تعالى لا يحب من كان بخيلا ويأمر الآخرين بالبخل، ويُخفي ماله.. أي يقول للمحتاج: ليس عندي شيء.

الشجاعة الحقيقية

ومن تلك الحالات البشرية الطبْعية حالةٌ تُشبِه الشجاعة. فنلاحظ مثلا أن الطفل الرضيع يضع يده أحيانا في النار لوجود هذه الحالة الطبْعية فيه. ذلك أن الطفل -بسبب غلبة جوهر الفطرة البشرية عليه- لا يهاب شيئًا قبل أن يمر بتجارب تبث فيه الخوفَ. والإنسان في هذه الحالة الطبْعية يتصدى للأسود وغيرها من وحوش الغاب بدون أدنى خوف، ويبرز وحده لمقاتلة عديد من الناس، وهم يظنون أنه شجاع باسل، ولكن الواقع أنها ليست إلا حالة طبْعية توجد في الناس كما توجد في الوحوش الكاسرة، بل في الكلاب أيضًا. أما الشجاعة الحقيقية التي تتجلى في موضعها وعند وقتها والتي هي خُلق من مكارم الأخلاق.. إنما هي اسم جامع للصفات والحالات التي صرح الله بها في وحيه القدسي بقوله:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (البقرة: ١٧٨)،

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرعد: ٢٣)،

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٤)،

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ الناسِ﴾ (الأنفال: ٤٨).

.. أي أن الشجعان حقا هم أولئك الذين إذا فاجأهم حرب أو حلت بهم مصيبة صبروا ولم يتهربوا من مواجهتها، ولا يكون صبرهم في الحروب والشدائد إلا ابتغاء مرضاته تعالى. إنهم يصبرون لوجه الله لا لإظهار بسالتهم. وإذا خوفهم أحد بأن القوم قد اتفقوا على معاقبتكم فلا تزيدهم هذه التهديدات إلا إيمانا فيقولون: ربنا يكفينا وهو نعم الوكيل. والمعنى أن شجاعتهم لا تكون كشجاعة الكلاب والوحوش التي يكون وراءها هياج طبيعي فقط، والتي يكون اندفاعها إلى جهة واحدة، بل إن شجاعتهم تكون ذات حدين: فأحيانا يقاومون بشجاعتهم الذاتية شهواتِهم النفسانية ويغلبونها، وأحيانا أخرى إذا رأوا مقاومةَ العدو أقربَ للمصلحة حاربوه، لا بسبب حماس نفسي فقط، بل دفاعا عن الحق. ويتحلون بالشجاعة لا متكلين على نفوسهم وإنما متوكلين على الله وحده. وتكون بسالتهم غيرَ مشوبة بشوائب الرياء أو الكبر أو هوى النفس، بل يبتغون بها مرضاة الله من جميع الوجوه.

إن الله تعالى قد بين لنا في هذه الآيات أن أصل الشجاعة الحقيقية إنما هو الصبر والثبات، وأن البسالة الحقيقية تتمثل في أن يبقى

الإنسان ثابتا على أقدامه ولا يهرب كالجبان عند هجوم من أهواء النفس أو من قِبل الأعداء. لذلك فالفرق عظيم جدًّا بين شجاعة الحيوان وشجاعة الإنسان. إن الحيوان ينقاد لغضبه الذي يدفعه باتجاه معين، وأما الإنسان المتصف بالشجاعة الحقيقية فهو يختار المقاومة أو عدمها حسب ما يناسب مقتضى الحال.

الصدق

ومن هذه الحالات الطبْعية الفطرية في الإنسان الصدقُ. إن الإنسان لا يتوخى الكذب مطلقا ما لم يكن له داعٍ من دواعي الأهواء النفسانية، بل يجد في نفسه نوعا من النفور والاشمئزاز تجاه الكذب. ولذلك نجده يسخط على مَن ظهَر كذبه ويزدريه.

غير أن هذه الحالة الطبْعية في الإنسان لا تكون وحدها من الخُلُق في شيء؛ إذ قد يتصف بها حتى الأطفال والمجانين أيضا. فالحق أن الإنسان لا يكون صادقا بالمعنى الحقيقي ما لم يبتعد كليةً عن الدوافع النفسانية التي تصده عن قول الحق. إذ كيف يمكن أن يتفوق الإنسان على الصغار والمجانين لو تمسك بالصدق فيما لا يضره كثيرا، ولجأ إلى الكذب أو سكت عن قول الحق إذا كان في قوله للصدق خوف على عرضه أو ماله أو نفسه؟ أفلا نجد المجانين والصغار دون سن البلوغ

يقولون كمثل صدقه؟ لن يوجد في العالم من يكذب بدون داع. لذلك فالصدق الذي لا يتمسك به صاحبُه ساعةَ الضرر لن يدخل في عداد الأخلاق الحقيقية. بل إن أفضل مناسبة لقول الحق هي تلك التي يهدد فيها قولُ الحق نفسه أو ماله أو عرضه.

وتعاليم الله بهذا الصدد كما يلي:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: ٣١).. أي تجنبوا عبادة الأصنام وقولَ الكذب.. بمعنى أن الكذب أيضا صنم يعتمد عليه الكاذب ولا يتوكل على الله. فالكاذب يترك بكذبه ربه.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة: ٢٨٣).. أي إذا دُعيتم للإدلاء بالشهادة بصدق فلا تمتنعوا عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام: ١٥٣).. أي إذا تحدثتم فلا تتحدثوا إلا بما هو حق وعدل تماما وإن كان قول الحق هذا ضد قريب لكم.

وقوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء:١٣٦).. أي عليكم أن تثبتوا على الحق والإنصاف، وأن تكون كل شهادة منكم لله فقط. لا تكذبوا وإن أضر قولُ الصدق بكم أو بآبائكم أو بأقاربكم كالابن وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (المائدة: ٩).. أي يجب ألا تحُول عداوةُ قوم دون إدلائكم بالشهادة بصدق.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٦).. أي أن أهل الصدق ذكورا وإناثا سوف ينالون أجورا كبيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٤)، وقوله تعالى: ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ (الفرقان:٧٣).. أي أن دأبهم توجيهُ النصح للآخرين أيضا لأن يقولوا الحق، كما أنهم لا يجلسون في مجالس الكاذبين.

الصبر

ومن هذه الحالات الطبْعية في الإنسان الصبر.. الذي يلجأ إليه عند المصائب والأسقام والآلام التي تفاجئه دوما، بعد كثير من النوح والجزع والفزع.

ولكن اعلموا أن الصبر على هذه الشاكلة لا يعتبره كتاب الله الكريم من الأخلاق في شيء، وإنما هو حالة تظهر تلقائيا بعد التعب والإعياء.. أعني أنه عند حلول مصيبة فإن مِن طبيعة الإنسان البكاءَ والعويلَ وضرب الرأس، ثم بعد أن يستنفد الكثيرَ من همه وغمه يبدأ في الهدوء، وفي آخر المطاف لا يسعه إلا أن يرجع القهقرى. فهاتان

الحالتان طبْعيتان ولا تمتّان للأخلاق بشيء. وإنما الخُلُق أنه إذا فقد شيئا فلا يتفوه بكلمة شكوى.. إيمانا منه أن ما فقده كان أمانةً عنده من الله تعالى، ويقول: كان أمانةً لله فاستردها مني وإني راضٍ برضاه.

ويعلّمنا القرآنُ الكريم -كلامُ الله العزيز- في هذا الخُلُق ما يلي: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٨).. أي أيها المؤمنون، سنختبركم من وقت لآخر، فتمرون أحيانا بحالات خوف شديد، وأحيانا يلازمكم فقر شديد وجوع، وأحيانا تصابون في أموالكم وفي أنفسكم، وحينا تضيع جهودكم فلا تأتي بنتائج مُرضية، وتارةً تموت فلذات أكبادكم. فالذين إذا ألَمّت بهم مُلِمّة قالوا نحن لله، ونحن أمانتُه ومِلكه، ويجب أن تُرجَع الأمانة إلى صاحبها.. هؤلاء طوبى لهم، لأنهم هم الذين عليهم صلوات الله وبركاته، وهم الذين اهتدوا إلى سبيل ربهم.

وخلاصة القول إن الخُلُق المذكور في الآيات السابقة هو الصبر والرضا بمرضاة الله، ويمكن أن يسمى العدلَ أيضًا، ذلك لأن الله

تعالى ما دام يساير الإنسان طوالَ حياته فيما يبتغيه ويحقق له آلاف الأمور التي يريدها، وينعم عليه بما لا يُعَدّ ولا يحصى من النعم، فليس من الإنصاف - لو أراد الله تعالى أن ينفذ مشيئته هو في بعض الأمور - أن يُعرض عنه الإنسان ولا يرضى برضاه، بل يتذمر ويشتكي أو يكفر به ويضل عن سواء السبيل.

مواساة الخَلْق

ومن الحالات الطبْعية التي تلازم فطرةَ الإنسان حماسُه لمواساة الخلق. إن الحماس للمواساة تجاه أبناء الأُمة موجود عند أهل كل دين كطبيعة فيهم، ومعظم الناس يظلمون غيرَهم بدافع الحماس الطبيعي لمواساة قومهم، وكأنهم لا يعتبرون غيرهم أناسا مثلهم. ولكن هذه الحالة ليست خُلُقا وإنما هي ثورة طبْعية، نلاحظها - إذا أمعنّا النظر - حتى في الغراب وغيره من الطيور، فلو مات غراب اجتمع حوله كثير من جنسه. وإنما تُعَدّ هذه العاداتُ من الأخلاق الإنسانية إذا تصرف فيها الإنسان مراعيا العدَل والموضع الملائم، وعندئذ تتحول إلى خُلُق عظيم يسمى في العربية "المواساة"، وفي الفارسية "همدردي".

وإلى هذا الخُلُق يشير الله بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٣).. أي يجب علينا إعانة قومنا ومواساتهم فيما هو خير وحسن، ويجب ألا نساعدهم أبدًا فيما هو ظلم واعتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ (النساء: ١٠٥).. أي عليكم ألا تبرحوا منهمكين في مواساة القوم بدون كلل أو ملل.*

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٦)،

وقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٨).. أي لا تخاصِمْ ولا تجادلْ دفاعا عن الخونة الذين لا يرتدعون عن الخيانة، فالله تعالى لا يوالي أهل الخيانة أبدا.

البحث عن ذاتٍ عُليا

ومن حالات الإنسان الطبْعية بحثُه عن الذات العليا التي توجَد في قلبه جاذبية خفية إليها. وتظهر آثار هذا البحث في الوليد بمجرد

* *لقد ذكر سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام هنا نوعين من الآيات: نوع يتعلق بمواساة الخلق والتعاون على الخير؛ ونوع يأمر بإنـزال العقوبة بالظالم إذا اقتضى الأمر، ليبين أن مواساة الخلق لا تمنع من معاقبة الشرير حمايةً لهم من شروره، فعقابه أيضا يُعتبر مواساةً لهم. (هذا التوضيح من حضرة الخليفة الرابع رحمه الله. الناشر)*

خروجه من بطن أمه. فإن أول ما يبديه الطفل من خواصه الروحانية بعد الولادة هو حبه لأمه وانجذابه إليها تلقائيًا. ثم كلما أخذت حواسه في الجلاء والوضوح وتفتحت براعم فطرته.. ازدادت باستمرار جاذبيةُ المحبة هذه جلاءً وإشراقًا.. حتى إنه لا يرتاح إلا في حضن أمه، ولا يجد تمام السعادة إلا في حجرها الحنون. ولو أنه فُصِل عن أمه وطُرح بعيدا عنها لصارت حياته مريرة كلية. لا يشعر بالسعادة والراحة مطلقا إلا في حجر أمه حتى لو كان بين يديه صنوف النعم. فما هو سر هذه الجاذبية والمحبة التي يشعر بها المولود نحو أمه؟

إنها في الحقيقة جاذبية المحبة التي أودعت في فطرة المولود للإله الحق. بل إنها نفس الجاذبية التي تفعل فعلها في كل رابطةِ حب ينشئها الإنسان، وهي التي تنعكس في وجدانه وهيامه هنا وهناك، فكأنه يفتش ويبحث من بين هذه الموجودات عن ضالته التي قد نَسِي اسمَها. فإن حُب الإنسان للمال أو الولد أو الزوج، أو انجذاب روحه إلى غناء ذي لحن جميل، إنما هو في الحقيقة بحثُه عن ذلك المحبوب المفقود.

وبما أن الإنسان لا يمكن أن يرى بعيونه المادية تلك الذاتَ اللطيفةَ للغاية والكامنةَ في كل شيء كمونَ النار في الزند، والمستترةَ عن

الجميع، والتي لا يستطيع أن يدرك كنهها بعقله الناقص، لذلك فقد ارتكب أخطاءً كبيرة في معرفتها، ونسب ما لها إلى غيرها خطأً. وما أروَعَ المثالَ الذي ذكره الله تعالى في القرآن المجيد لتوضيح هذا الأمر! حيث شبه هذا العالم بصرح مُهدت أرضيته بزجاج شفاف للغاية، تجري من تحتها المياه بقوة. فمَن نظر إلى هذا الفناء الزجاجي المصقول حَسِبَه ماءً وخشي أن يمشي عليه كما يخشى المشي على الماء، مع أنه في الواقع زجاج شفاف. فكذلك الأجرام الجسام التي نراها، فهي بمنـــزلة ألواح زجاجية شفافة عَبدها الناس خطأً.. وهناك وراءِ سِتر هذا الزجاج قدرة عليا تعمل بكل قوة وسرعة كالماء الدافق، ولكن خداع البصر هو الذي ضلل عبَدَةَ المخلوق؛ حيث عَزَوا إلى الزجاج ما تديره تلك القدرة من أفعال. وهذا هو المعنى الذي تشير إليه الآية: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٥).

خطأ الفلاسفة

إن ذات الله تعالى- مع كونها جليةً للغاية - هي أخفى ما يكون، لذلك لم يكن هذا النظام المادي المتجسد أمام أعيننا كافيًا وحده لمعرفة الله تعالى. ولهذا السبب فإن الذين اعتمدوا على ظواهر هذا النظام لمعرفة الله.. وما برحوا ينظرون بكل إمعان وتدبر في ترتيبه

الكامل المحكَم المشتمل على عجائب لا تحصى.. حتى برعوا في علوم الفلك والطبيعة والفلسفة، وكأنهم جاسوا خلال السماوات والأرض.. إلا أنهم، مع كل هذا، ما استطاعوا النجاةَ من ظلمات الشكوك والشبهات، وأكثرُهم وقعوا في أنواع الأخطاء الفادحة وصنوف الأوهام الواهية، فانحرفوا وضلوا ضلالا بعيدا. وكان أقصى ما عرفوه عن وجود الخالق أنهم لما رأوا نظامَ الكون المحكَمَ قالوا في أنفسهم: أنه لا بد لهذا الكون العظيم ذي النظام الحكيم من خالقٍ. ومن البديهي أن هذه الفكرة غير كاملة، وهذه المعرفة ناقصة.. لأن قولهم: "لا بد لهذا الكون من خالق" لا يساوي أبدًا قولَنا: "إن هذا الخالق لموجود بالفعل". لذلك لم تكن معرفتهم تلك إلا قياسا بحتا، ولا تبعث الطمأنينة ولا السكينة في القلب، ولا تزيل الوساوس كليةً من النفس، وليست هي بالكأس التي تُطفئ الظمأ الذي فُطر عليه الإنسان للمعرفة الكاملة لله. بل إن هذه المعرفة الناقصة تُشكل خطرا شديدا، لأنها لا تعود بطائل رغم كل هذه الثرثرة والكلام.

إذن فما لم يُظهر الله تعالى وجودَه بكلامه -كما قد أثبت في الحقيقة- لا تكون مشاهدة أفعاله وحدها كافيةً لجلب الطمأنينة للإنسان. فمثلا إذا صادفنا حُجرةً مغلقة من الداخل، يتبادر إلى الذهن -أول وهلة- أن هناك شخصا داخل الغرفة أغلقها من

الداخل، لأن إغلاق الغرفة بالقفل الداخلي مستحيل من الخارج. ولكن إذا نادينا مرارا وتكرارا أياما وسنين و لم نتلق جوابا من داخل الغرفة.. بدلنا رأينا وقلنا إنه ليس بداخلها أحد، وتصورنا أن الإغلاق قد تم بحيلة بارعة. وهذا هو حال أولئك الفلاسفة الذين قصروا معرفتهم على المشاهدة فحسب.

وإنه لعمري خطأ كبير أن يُعتبَر الإله كالميت الذي لا يقيمه من ضريحه إلا الإنسان. ولو أن الإله لا يُستدل على وجوده إلا بجهود البشر لكانت كل آمالنا في مثل هذا الإله عبثًا. وإنما الإله هو ذلك الذي ما زال منذ الأزل يدعو الناس إليه بقوله: أنا الموجود. إن من الوقاحة الشديدة أن نظن أن للإنسان على الإله فضلا في معرفته إياه، ومن الوقاحة الشديدة الظن أنه لولا الفلاسفة لبقي الإله مفقودا كما كان. ومن الجسارة الكبيرة أن نقول: كيف يقدر الله على النطق وليس له لسان؟ ألم يخلُق جميعَ الأجرام السماوية والأرض بدون يدَين ماديتين؟ ألا يرى كل الكون بدون عين مادية؟ ألا يسمع دعواتِنا بدون أذنين ماديتين؟ أفليس من الضروري إذن أن يتكلم أيضا هكذا؟ ليس صحيحا أبدا القول بأن الله كان يتكلم فيما مضى ولا يتكلم الآن. كلا! إننا لا نحدد كلامه ومخاطباته في زمن دون زمن. لا جرم أنه سبحانه لا يزال -كما كان- مستعدا ليعطي السائلين عطاء

جزيلا من ينبوع وحْيِه، وأن أبواب رحمته مفتوحة الآن كما كانت سابقا. غير أن إنــزال الشرائع والحدود الجديدة قد انتهى لانقطاع الحاجة لذلك، وأن جميع النبوات والرسالات قد تكاملت ببلوغها النقطةَ الأخيرة لها في شخص سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

الحكمة في بعث النبي ﷺ من العرب

إن ظهور هذا النور الأخير من بين العرب لا يخلو من حكمة. كان العرب شعبًا من سلالة بني إسماعيل الذين انفصلوا عن بني إسرائيل، وأُلقيَ بهم -لحكمة إلهية- في برية فاران ومعنى "فارّان" الهاربان. فبنو إسماعيل الذين فصلهم إبراهيم بنفسه عن بني إسرائيل، لم يكن لهم نصيب في شريعة التوراة، كما هو مذكور أنهم لن يرثوا مع إسحاق. وهكذا هجرهم من كان على قرابة معهم، أما الآخرون فما كان لهم من قرابة أو رابطة أخرى معهم. أما البلاد الأخرى فكان بها تقاليد من العبادات وآثار من الأحكام مما يدل على وصول تعاليم الأنبياء إليها في زمن من الأزمان. ولكن بلاد العرب وحدها كانت تجهل تلك التعاليم، وكانت بذلك أكثرَ البلدان تخلفا، ولأجل ذلك كله جاء دورها في نيل النبوة بعد الجميع. وكانت نبوتها عامةً لتشمل العالمين قاطبة بالبركات مرة

أخرى، ولتزيل عنهم ما وقعوا فيه من أخطاء. إذن فأي كتاب ننتظر بعد هذا الكتاب الكامل، الذي تكفل بالإصلاح البشري بأجمعه، ولم يخص قوما دون قوم كالصحف الأولى.. بل توخى إصلاحَ الأمم كلها.. وبين ما يخص التربية البشرية بكل درجاتها.. وعلم المتوحشين الآدابَ الإنسانية.. ثم -بعد أن جعلهم أناسا- أرشدهم إلى الأخلاق الفاضلة؟

فضل القرآن المجيد على العالم

إن القرآن وحده هو الكتاب الذي أحسن إلى العالم.. بأنْ ميّز بين الحالات الطبْعية والأخلاق الفاضلة.. وأخرج الإنسان من الحالات الطبْعية إلى ذروة الأخلاق السامية، ولم يكتف بذلك، بل قطع المرحلة الباقية.. وهي الوصولُ إلى مقام الحالات الروحانية. فقد فتح لذلك أبواب المعرفة الحقيقية، ولم يفتح الأبواب المؤدية إلى ذلك المقام فحسب، بل لقد أوصل إليه مئات الآلاف من البشر. وهكذا وضح بكل روعة وجمال الأقسامَ الثلاثة من التعاليم التي سبق ذكرُنا لها. وبما أن القرآن جامع تماما لجميع التعاليم الضرورية للتربية الدينية، لذلك أعلن أنه أكمل دائرة التعليم الديني فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة:٤).. أي أن منتهى الكمال الديني يتمثل في معنى

الإسلام.. أي أن يكون الإنسان لله وحده.. وأن يبتغي نجاته بالتضحية بنفسه لا بأي طريق آخر، ثم ينفذ هذه النية والإرادة بالعمل. هذه هي النقطة التي تنتهي إليها الكمالات كلها. فالإله الحق الذي لم يهتد إلى معرفته الفلاسفةُ.. قد هدى إليه القرآن الحكيم. ولقد اتخذ لإعطاء معرفة الله منهاجين: الأول ما يصبح به العقل في غاية من القوة والجلاء في استنتاج الأدلة العقلية، ويتقي به الخطأ والعثار. وأما المنهاج الآخر فهو روحاني، وسنذكره -إن شاء الله- في جواب السؤال الثالث.

الأدلة العقلية على وجود الله تعالى

الآن انظروا ما أحسن وما أبدع ما ساقه القرآن الحكيم من أدلة عقلية على وجود الله تعالى. يقول في موضع منه:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه:٥١).. يعني أن الله هو الرب الذي وهب لكل شيء خِلقةً بحسب حاله، ثم هداه إلى ما يستكمل به غايته التي خُلق لأجلها. ولو نظرنا على ضوء معنى الآية إلى بنْية كل المخلوقات الموجودة في البر والبحر من إنسان ودابة وطير لتجلت لنا قدرةُ الله تبارك وتعالى.. كيف أنه وهَب لكل

مخلوق بِنْيةً مناسبة له. إن موضوع الآية واسع جدا، فليتدبره القرّاء بأنفسهم.

والدليل الثاني على وجود الله في القرآن المجيد هو كون ذاتِ الله علةَ العلل، حيث يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:٤٣).. أي أن سلسلة الأسباب والمسببات كلها في نظام هذا العالم تنتهي إلى الله سبحانه وتعالى. وبيان ذلك أن جميع الموجودات مرتبطة بسلسلة السبب والمُسبب. ومن أجل ذلك ظهرت أنواع من العلوم في العالم، إذ لا يخرج عَن هذا النظام أي من المخلوقات. فالبعض منها بمنـــزلة الأصول، والبعض الآخر منها كالفروع. ومن البديهي أن العِلةَ إما تقوم بذاتها أو بوجود علةٍ أخرى، وهذه تقوم بعلة ثالثة وهلمّ جرّا. ولا يصح أبدا أن تكون سلسلة العلل والمعلولات في الكون المحدود بدون نهايةٍ وحد. وعليه فلا بد من التسليم بأنها – لا محالة – تنتهي بعلة هي العلة الأخيرة. فالمنتهى الذي تنتهي إليه هذه السلسلة من العِلل هو الله تعالى. فتبصروا كيف أن الآية: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ تبين الدليل المذكور بأبلغ بيان في كلمات قصيرة.

ثم ساق دليلا آخر على وجود الله تعالى قائلا: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤١).. أي لا الشمس تستطيع أن تلحق القمَر، ولا الليل –

وهو مظهر القمر - يمكنه أن يتعدى النهارَ - الذي هو مظهر الشمس. أي لا يمكن لأحدهما أن يتجاوز حدودَه المقدرة. فلو لم يكن هناك مدبر ينظم سيرها من وراء الحجب لاختل نظام الكون كله. وهذا الدليل نافع جدًّا للمتفكرين في هيئة الأفلاك.. لأن النظام الفلكي يضمّ عددًا لا يحصى من الأجرام الضخام، بحيث إنه لو وقع فيها خلل ولو كان بسيطًا جدًّا لانْهار العالم كله. فما أعظَمَها من قدرة تتحكم في هذه الأجرام بحيث لا تتصادم ولا تغير مِن سرعتها قِيدَ شعرة، ولا هي تآكلت ولا اندثرت ولا حدَث نقص في أدواتها وأجزائها، مع استمرار العمل طول هذه المدة! فكيف أمكن استمرارُ هذا النظام العظيم الضخم من تلقاء نفسه منذ سنين لا تحصى، إن لم يكن هنالك فوقه مهيمن حفيظ؟ وإلى هذه الحِكم نفسها يشير الله تعالى في موضع آخر بقوله: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١١).. أي هل يمكن الشك في وجود الله الذي خلق السماوات والأرض بهذا الشكل؟

كذلك يذكر الله سبحانه دليلا لطيفا آخر على وجوده قائلا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٧-٢٨).. أي أن كل شيء في معرض الزوال، وأما الباقي فهو الله ذو الجلال والإكرام. ولنفرض أن الأرض تفتّتتْ

وصارت غبارًا، وانفطرت الأجرام الفلكية وصارت هباءً، وهبَّت عليها عاصفة الفناء فمحت أيَّ أثرٍ منها، ومع هذا فإن العقل يسلم، بل إن الوجدان السليم يرى من الضروري أن يبقى بعد كل هذا الفناء شيء واحد لا يفنى ولا يقبل تغييرا ولا تبديلا، بل لا يزال على حالته الأولى، وذلك الشيء الوحيد هو الله الذي خلق كل الأشياء الفانية ويبقى هو بعيدا عن يد الفناء.

ثم يقدم الله في القرآن الكريم دليلا آخر على وجوده قائلا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف:١٧٣).. أي سألتُ الأرواحَ فأجبن كلهن بأني ربهن. وفي هذا الحوار يشير الله تعالى إلى خاصيةٍ غرَسها في فطرة الأرواح، وهي أنه ليس هناك روح تستطيع بفطرتها أن تنكر وجود الله، وإنما ينكره الجاحدون لأنهم لا يجدون في زعمهم دليلا على وجوده تعالى، ولكنهم مع هذا الجحود يسلّمون بأنه لا بد لكل حادث من مُحدِث. لا يوجد في العالم أحمق واحد يصاب بدنه بداء فيصرّ على أن ليس وراء هذا الداء من علّة خفيّة. والحق أنه لولا انضباط نظام هذا الكون بسلسلة العلل والمعلولات، لما أمكن الإنباء أنه في وقت كذا سيأتي الفيضان، أو تهبّ العاصفة، أو يحدث الخسوف أو الكسوف، أو يموت المريض، أو أنه في وقت كيت وكيت يصاب المريض بكذا وكذا من الأعراض. ولذلك فمثل

هذا العالِم الملحد يقرّ بوجود الله تعالى ضمنيًا وإنْ أنكر به علنًا، لأنه يظل -كمِثْلنا- في البحث والتفتيش عن الأسباب للمسبّبات، وهذا أيضا نوع من الإقرار، وإن كان غير كامل.

ثم إننا لو وضعنا المنكِر لوجود الله تحت تأثير مخدر بحيث تتعطل منه جميع إراداته، ويذهل عن أفكار الحياة الدنيا، ويصبح في تصرف ذي سلطان أعلى، لاعترف عندئذ بوجود الله تعالى، ولما كفر به، وقد شهدت بذلك اختبارات كبارِ المجربين. وإلى هذه الحالة تشير هذه الآية، والمراد منها أن الجحود بوجود البارئ يتم بتأثير الحياة الدنيا.. وإلا فإن الفطرة السليمة لتعترف تماما بوجود الله سبحانه وتعالى.

صفات البارئ تعالى

هذه بعض الأدلة على وجود الخالق عَزَّ وَجَلَّ ذكرناها على سبيل المثال.

هذا وينبغي أن تعلموا أيضا أن الإله الذي دعانا إليه القرآن الكريم قد ذكره بهذه الصفات بقوله: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر: ٢٣)،

وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)،

وقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر: ٢٤)،

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٥)،

وقوله تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٤٩)،

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٣-٥)،

وقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٧)،

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ٣)،

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص)

.. أي أن الله هو الإله الأحد، الذي ليس له شريك يستحق العبادةَ والطاعة. ذلك لأنه لو كان معه إله شريك لجاز أن يغلب عليه الإله الشريك بسلطته، وبالتالي تتعرض ألوهيته للخطر. وقوله بأنْ لا أحد يستحق العبادة سواه فيعني أنه إله كامل ذو محامد كاملة ومحاسن عالية وكمالات سامية.. بحيث لو أردنا أن نختار معبودا من بين جميع الموجودات نظرا إلى كمال الصفات، أو تصورنا غايةَ ما

نستطيع تصورَه من صفاتٍ أعظم وأعلى لمعبود، لكان الأعلى بين الجميع.. الذي لا يوجد أعلى منه مطلقا.. هو الله.. الذي من الظلم أن يشرِكَ في عبادته مَن هو دونه.

ثم قال إنه "عَالِمُ الْغَيْبِ"، أي أنه هو نفسه يعلم ذاته، ولا يقدر غيره أن يحيط ويدرك ذاته. نستطيع أن نرى صورة الشمس والقمر وكل مخلوق، إلا أننا عاجزون عن رؤية ذات الله تعالى.

ثم قال "والشهادةِ"، يعني أنه لا شيء مستتر عن نظره. لا يجوز أن يسمى إلها مَن يبقى في غفلة عن علم المخلوقات. كلا، إن كل ذرة من العالم تحت بصره، وأما الإنسان فلا يستطيع ذلك. إنه تعالى يعلم متى يُفني هذا النظام ومتى يقيم القيامةَ، ولا أحد سواه يعلم متى يكون هذا.. فالذي يعلم جميعَ هذه المواعيد هو الله تعالى.

وقوله "هُوَ الرَّحْمَنُ" يعني أنه هو الذي يُهيئ لذوات الحياة كل ما تحتاج إليه من أسباب المعيشة والراحة حتى قبل وجودها. كل ذلك بفضلٍ بحت منه، وليس نتيجةً لأعمالها وسعيها. فإنه سبحانه خلَق لأجلنا الشمس والأرض وغيرهما من المخلوقات حتى قبل وجودنا ووجود أعمالنا. وهذا العطاء يسمى في كتاب الله "الرحمانية"، ونظرًا إلى هذا الصنيع يُدعى الله بـــ"الرحمن".

وقوله "الرّحِيمُ" يعني أنه يجزي على الأعمال الصالحة خيرا، ولا يضيع عمل عامل. وباعتبار هذه الصفة يُدعَى الله بـــ "الرحيم"، وصفته هذه تسمى "الرحيمية". وقوله "مالِكِ يومِ الدينِ" يعني أنه جعل في يده جزاءَ كل واحد، وليس له من وكيل فوض إليه تدبيرَ ملك السماوات والأرض، وقعد بنفسه جانبا لا يفعل شيئا، بينما يقوم أو سيقوم وكيله بمهمة المجازاة والعقاب.

ثم قال "المَلِكُ القُدّوسُ" أي أنه صاحب السلطان الذي ليس فيه وصمة عيب. الواضح أن مُلك البشر لا يخلو من نقص، فمثلا لو هاجرت الرعية كلها من دولة مِلِكٍ إلى دولة أخرى لضاع مُلكه؛ أو لو حل القحط والمجاعة بالرعية كلها، فمن أين تُجبى الأموال؟ أو إذا قامت الرعية تجادل المِلِك قائلة: بأي ميزة صرتَ ملكًا علينا.. فماذا عساه يقول ردا على ذلك؟ ولكن سُلطان الله ليس كهذا. إنه قادر على أن يُهلك الجميعَ في لمح البصر ويأتي بخلق آخر جديد. ولو لم يكن خلاقا وقديرا هكذا لَما قام حكمه إلا بظلم. وإلا فمن أين يأتي بخَلقٍ جديد إلى الدنيا ليمارس عليهم سلطانه.. بعد أن يكون قد شمل جميعَ خلقه الأولين بالعفو والنجاة؟ فهل يسترد - ظلمًا واعتسافا - من عباده الناجين النعمَ التي أعطاهم إياها، ويسلبهم المغفرةَ التي تفضل بها عليهم، لكي يزجّ بهم مرة أخرى في الحياة الدنيا ليعمرها

ويحكمها. ستكون ألوهيته في هذه الحالة معيبة، ويصير مُلكه ناقصا شأنَ ملوك الدنيا الذين لا يبرحون يسنّون لرعيتهم قوانين جديدة، ويستبدّ بهم الغضب على كل صغيرة وكبيرة، وعندما لا يجدون بدًّا من الظلم -قضاءً لمآربهم- يستسيغون الظلم والجور كما يستسيغ الرضيع لبنَ أمه. فمثلا يجيز القانون الملكي إغراقَ ركاب سفينة صغيرة إنقاذا لسفينة كبيرة، ولكن الواجبَ ألا يُضطرَّ الإله القدير هذا الاضطرار. فلو لم يكن الإله كاملا في قدرته، خلاقًا من عدمٍ محض، للجأ -بدلاً من إظهار قدرته - إلى الظلم كالملوك الضعفاء، أو لتخلى عن ألوهيته مراعاةً للعدل. كلا، إن سفينة الله سائرة مع كل قدرة وفي عدل كامل.

وقوله "السَّلامُ" يعني أنه منـــزه عن جميع العيوب، سالم من كل المصائب والمشقّات، بل إنه مانح السلام للآخرين. وهذا بديهي، لأنه لو كان بنفسه عُرضةً للنوائب وللضرب بأيدي الناس، وللفشل في إرادته فكيف تطمئن قلوبنا -برؤية سوء حاله هذا- بقدرة مثل هذا الإله على تخليصنا من الآلام؟ ولأجل ذلك يقول تعالى في الآلهة الباطلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٧٤-٧٥)

وقوله تعالى: "ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطْلوبُ" يعني أن عابدي هذه الآلهة ضعافُ العقول. أما الآلهة نفسها فهي ضعيفة القوة والحيلة. فهل يمكن لمثل هؤلاء أن يكونوا آلهة حقيقيين؟ إنما الإله مَن يكون أقوى من كل قوي وغالبا على الجميع. لا أحد يقدر على القبض عليه أو على ضربه. إن الذين يقعون في أعمال خاطئة كهذه لا يعرفون عظمة الله تعالى، ولا يدركون ما هي الصفات الواجبة للإله.

أما قوله "المؤْمِنُ" فيعني أنه واهب الأمان، والذي يقيم الدلائل على توحيده وكمالاته. وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن بالإله الحق لا يخزى أبدا أمام مجلس من المجالس، كما لن يخجل أمام ربه، ذلك لأن معه أقوى البراهين. أما عابد الإله الباطل فهو دائما في مشكلة كبيرة، وبدلا من بيان الأدلة يسوق كل لاغية واهية مدعيا أنها من الأسرار الغامضة، هروبا من خزي الاستهزاء، وإخفاءً لأخطاء تأكد زيفُها.

وقال تعالى: "الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ".. أي أنه الحافظ للجميع، الغالب عليهم، المصلح لما خرب وفسد، المستغني كل الاستغناء.

وقال: "الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى".. أي أنه خالق الأرواح كما أنه خالق الأجسام، وأنه المصور في الأرحام، وأنه صاحب جميع الأسماء الحسنى التي يمكن أن تُتَصور.

وقال: "يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".. أي أن سكان السماوات يذكرون اسمه بالتسبيح والتقديس كما يذكره سكان الأرض. وفي هذه الآية إشارة إلى أن الأجرام السماوية أيضا عامرة بسكان ملزَمين بتعاليم الله تعالى.

وفي قوله تعالى: " عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ " سلوانٌ للعابدين.. إذ ما الفائدة أن نعقد عليه أملا ورجاءً إذا كان عاجزا غير قادر؟

وقوله تعالى: "رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرحْمَنِ الرحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدينِ" يعني أنه هو الإله الذي يقوم بتربية كل العوالم. وأنه رحمن رحيم وهو بنفسه مالك يوم الدين، ولم يجعل هذه السلطة في يد أحد غيره.

وقوله تعالى: "أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ".. يعني أنه يسمع دعاءَ كل داعٍ يستجيب لدعائه؛ أي أنه مستجيب الدعوات.

وقوله تعالى: "هُوَ الْحَيُّ الْقَيّومُ".. يعني أنه الباقي للأبد، وأنه حياةُ جميع الأحياء وقوامُ الموجودات كلها. إذ لولا أنه الأزلي الأبدي لكنا دائما أبدا في قلق ووَجَل من موته قبل موتنا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.. يعني أنه وحده إله، وليس بوالدٍ لأحد، ولا مولود لأحد، ولا نظير له ولا أحد من جنسه.

الخير الحقيقي

وتذكروا أن الاعتقادَ الصحيح بوحدانية الله تعالى، وعدمَ الإفراط والتفريط في شأنه، هو العدل الذي يراعيه الإنسان بحق مالكه الحقيقي.

هذا كله هو القسم الأخلاقي الذي أوردناه من تعاليم القرآن المجيد. والأصل الأساسي في هذا أن الله قد صان الأخلاقَ كلها من الإفراط والتفريط، وقد سمى كل واحد منها خُلُقا ما دام لا يعدو حده الضروري الواجب بالنقص أو بالزيادة. فالواضح أن الخير الحقيقي هو الأمر الوسط بين حدين.. أي بين الزيادة والنقصان أو الإفراط والتفريط. فكل عادة تجذب الإنسان نحو الوسط وتثبّته فيه هي التي تنشئ الخُلُقَ الفاضل. وإنّ معرفة المكان المناسب والوقت المناسب هي الوسط، فمثلا لو بذر الفلاحُ الحَبَّ قبل الأوان أو بعد فواته، لجانبَ الوسطَ في الحالتين. إن الخير والحق والحكمة جميعًا تقع في الوسط، والوسطُ يتوقف على معرفة المحل الأنسب، أو بعبارة

أخرى.. إن الحق هو الذي يتوسط دائما بين باطلين متضادين. ولا شك أن مراعاة المحل الصحيح تماما يحفظ الإنسان دائما في الوسط.

إن علامة الطريق الوسط في معرفة الله هي ألا يميل الإنسان في بيان صفاته عز وجل.. لا إلى نفي الصفات عنه تماما، ولا إلى تشبيهه – سبحانه– بالأشياء الدنيوية. وهذا هو الطريق نفسه الذي اتبعه القرآن المجيد في بيان صفات الله تعالى. فبينما يقول إن الله يرى ويسمع ويعلم ويتكلم.. فإنه من ناحية أخرى يُنـــزهه عن مماثلة المخلوق ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١٢)، ويقول تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلّهِ الأَمْثَالَ﴾ (النحل: ٧٥).. أي لا أحَدَ شريكٌ لله لا في ذاته ولا في صفاته تعالى، فلا تضربوا لله الأمثال من مخلوقاته. إنما الطريق الوسط هو اعتبار ذات الله بين التشبيه والتنـــزيه.

الفارق بين التعليم الإسلامي وغيره

إذن، فتعاليم الإسلام كلها وسط واعتدال. وسورة الفاتحة أيضا تعلم الوسطية، لأن الله يعلّمنا فيها دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِينَ﴾.

والمراد من " الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ " أولئك الذين يستعملون قوة غضبهم بما يخالف مرضاةَ الله، وهكذا ينقادون للقُوى السبُعِية فيهم.

والمراد من " الضالينَ " أولئك الذين يطاوعون القوى البهيمية فيهم. وأما الأمر الوسط فهو الذي ذكره في قوله " أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ".

قصارى القول.. إن الله قد أمر هذه الأمة المباركة في القرآن المجيد بالوسطية. أما في التوراة فقد ركز الله على أحكام الانتقام، وفي الإنجيل ركز على تعليم العفو والسماح. وأما هذه الأمة فعلَّمها مراعاةَ الظروف والوسطية.. كما يقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٤).. أي جعلناكم العالمين بأوسط الأمور وعلمناكم الوسط. فطوبى لمن يسلكون الوسط، فإن خير الأمور أوسطها.

الإصلاح القرآني الثالث

إصلاح الحالات الروحانية

أما الجزء الثالث من السؤال فهو عن الحالات الروحانية.. وقد ذكرنا فيما سبق أن منبع الحالات الروحانية -حسبما هدانا إليه القرآن المجيد- هو "النفس المطمئنة" التي تصل بالإنسان من مرتبة إنسانٍ "أخلاقي" إلى مرتبة إنسان "رباني".. كما يقول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٨-٣٠).

وتبيانا للحالات الروحانية يجدر بنا هنا أن نفسر هذه الآية بشيء من الإيضاح.

ولنتذكر أن أعلى درجة روحانية للإنسان في الحياة الدنيا هي أن يطمئن إلى ربه، وأن يجد كل السلوان والسرور واللذة في الله. وهذه هي الحالة التي تسمى بعبارة أخرى "الحياة الفردوسية". في هذه الحالة يظفر الإنسان بجنة الدنيا جزاءً على كامل صدقه وصفائه ووفائه. وبينما يكون غيره من الناس لا يزالون يتطلعون إلى الجنة الموعود بها في المستقبل.. يدخل هذا في جنة حاضرة. عند بلوغ هذه

الدرجة نفسها، يدرك الإنسان أن العبادة التي كان قد حمل أعباءها هي في الحقيقة الغذاءُ الوحيد الذي يغذي روحه، والعماد الذي تقوم عليه حياته الروحانية بدرجة كبيرة، وأن الحصول على ثمرة هذه العبادة ليس موقوفا على عالم آخر. وعندئذ فإن حافزا مباركا هو بدايةٌ لنشأة النفس المطمئنة وتطورها يأخذ مكانَ كل اللوم الذي كانت تكيله النفسُ اللوامة للإنسان على حياته الدنسة، ومع ذلك كانت تفشل في تحريك الرغبات الحسنة فيه كما ينبغي، وفي توليد النفور الحقيقي إزاء الرغبات الشريرة، وفي تزويده بالمقدرة الكاملة على التمسك التام بالفضيلة. ومتى بلغ الإنسان هذه الدرجةَ حان له أن يحوز الفلاحَ الكامل. فتأخذ الشهوات النفسانية كلها في الخمود من تلقاء نفسها، ويهب على روحه نسيم منعش، يجعله ينظر إلى تقصيراته السابقة بعين الندامة. وحينئذ يطرأ على فطرة الإنسان انقلاب كبير، ويحدث في عاداته تغير عظيم؛ فيبتعدُ عن حالاته الأولى بُعدًا شاسعا، ويُغسَل ويطهَّر؛ ويحبِّب الله الخيرَ إلى قلبه، ويُذهب رجسَ الإثم عن فؤاده، ويقتحم جيشُ الحق مدينةَ قلبه، ويستولي الصدق على كل أبراج قصر فطرته، ويتغلب الحق ويزهق الباطل ويلقي سلاحه؛ وتكون يد الله تعالى فوق قلب هذا الإنسان، فيمشي كل خطوة تحت ظل الله تعالى. وإلى هذه الأمور عينِها يشير

الله ﷻ بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة:٢٣)، وقوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات: ٨-٩)، وقوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

فكل هذه إشارات إلى هذه الحالة الروحانية التي تحدُث للإنسان عند وصوله إلى المرحلة الثالثة. ولن ينال بصيرة صادقة ما لم يصل إلى هذه المرحلة.

وأما قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ فهو إشارة إلى أن الإنسان لا يمكنه أن ينال طهارة حقيقية خالصة إلا إذا أسعفته العناية السماوية. والإنسان أثناء مروره بمرحلة النفس اللوامة يتوب مرة بعد أخرى، ويتعثر مرة بعد أخرى، بل كثيرا ما يقنط من صلاحه، ويظن مرضه داءً لا علاج له. ولا يزال كذلك لمدة من الزمان، حتى إذا حل الوقت المقدر ليلا أو نهارا.. ينـــزل عليه فجأةً نورٌ.. فيه قوةٌ ربانية؛ وعندئذ يحدث في الإنسان انقلاب عجيب، ويشعر بتصرف قوي من يدٍ وراء الغيب، ويشاهد عالما عجيبا. فهنالك يعلم الإنسان يقينا أن الله موجود، وتتمتع عيونه بنور لم يتمتع به من قبل.

كيف السبيل إلى الروحانية الحقيقية؟

ولكن كيف نهتدي إلى ذلك السبيل، وكيف نفوز بذلك النور؟ فاعلموا أن في هذا العالم - وهو عالَم الأسباب - توجد علة لكل معلول، ومحرك لكل حركة، وطريق لتحصيل كل علم.. يسمى الصراط المستقيم. ولا يوجد في الدنيا شيء يوهب من دون العمل بالقوانين التي وضعها الله القدير منذ الأزل. إن النواميس الطبيعية تشهد بأن تحقيق أي غرض مرتبط بصراط مستقيم، وعليه يتوقف الوصول إلى ذلك الغرض. فمثلا لو كنا في غرفة مظلمة واحتجنا إلى ضوء الشمس.. فإن الصراط المستقيم لذلك هو أن نفتح النافذة المواجهة للشمس.. فإذا ضوء الشمس يغمر الغرفةَ ويضيئها لنا. كذلك لا بد من وجود نافذة لنيل بركات الله الحقيقية اليقينية، ولا بد من طريق خاص نحصل به على الروحانية الخالصة. أجل، إن ذلك الطريق هو أن نبحث للأمور الروحانية عن صراط مستقيم.. تماما كما لا نـــزال نبحث عن طرق سليمة للنجاح في أمور حياتنا كلها.

ولكن هل ذلك الطريق يعني أن نتحرى الوصال بالله تعالى.. معتمدين فقط على قوة عقولنا، أو ما نخترعه من عند أنفسنا؟ هل يمكن لقوة منطقنا وفلسفتنا وحدها أن تفتح لنا أبواب الله التي

يتوقف انفتاحها على يده القوية؟ ألا فاعلموا يقينا أن هذا غير صحيح بتاتا. إننا لن نستطيع مطلقا أن نحظى بوصال ذلك الحي القيوم بوسائلنا المجردة، وإنما الصراط المستقيم الوحيد في ذلك.. هو أن نكرس حياتنا وجميع قوانا في سبيله أولا.. ثم لا نبرح ندعو حتى نجد الله بمساعدة منه عز وجل.

دعاء رائع

الدعاء الرائع - الذي يعلّمنا الوقت الصحيح والفرصة الملائمة لطرح السؤال إلى الله، والذي يرينا صورة الابتهال الروحاني الفطري (عند السؤال) - هو ذلك الدعاء الذي علّمنا الله إياه في مستهل كتابه المجيد.. أي دعاء سورة الفاتحة وهو:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. كل المحامد الممكنة هي لله خالق كل العوالم وحافظها .

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. الذي هيّأ لنا أسباب رحمته حتى قبل أعمالنا، ثم -بعد أعمالنا- يجزينا عليها برحمته.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.. هو وحده مالك يوم الجزاء، ولا يفوض هذا الأمر إلى يد أحد سواه.

﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. يا من تجمع في ذاتك هذه المحامد كلها.. نعبدك ونسألك وحدك التوفيقَ في كل عمل. إن الاعتراف بالعبودية بصيغة الجمع هنا إنما يعني أن جميع قوانا منهمكة في عبادتك، وخاضعة على بابك. فالإنسان - باعتبار قواه الباطنة - يصبح بمثابة جماعة وأمة، وهكذا فإن سجود جميع القُوى لله بهذا المعنى هو نفسُ الحالة التي تسمى "الإسلام".

﴿اهْدِنَا الصرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دُلَّنا على صراطك المستقيم وثبّتْنا عليه، ثم دُلَّنا على صراط القوم الذين أنعمت عليهم وأكرمتهم، فأصبحوا موردا لفضلك وكرمك.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالينَ﴾. وَاحْمِنا من سلوكِ طريقِ قومٍ غضبتَ عليهم و لم يستطيعوا الوصولَ إليك، وإنما ضلوا سبيلك.

(آمين).. أي يا رب حَقِّقْ لنا هذا.

تُبيّن لنا هذه الآيات أن نِعم الله تعالى -التي تسمى "فيوضا" أيضا- لا تتنـــزل إلا على أولئك الذين قد ضحوا بحياتهم في سبيل الله، ونذروا كل وجودهم لأجله، وتفانَوا في مرضاته، ثم ما برحوا يدعون .. حتى يسعدوا بكل ما يمكن أن يُعطى للإنسان من النعم الروحانية.. من قرب الله ووصاله ومكالمته ومخاطبته. ثم إلى جانب هذا الدعاء يعبدون الله بجميع قواهم، ويجتنبون الذنوب، ولا يبرحون

العتبةَ الربانية، ويحمون أنفسهم من السيئة بأقصى جهدهم، ويبتعدون عن سبل المغضوب عليهم. وبما أنهم يبحثون عن الله تعالى بهمة عالية وصدقٍ لذلك يجدونه، ويُسقَوْن من كؤوس المعرفة الإلهية الحقيقية.

ضرورة الاستقامة الكاملة

إن الاستقامة المذكورة في هذه الآية تشير إلى أن الفيض الحقيقي الكامل الذي يوصل الإنسان إلى العالم الروحاني إنما يتوقف حصوله على الاستقامة الكاملة. والمراد بالاستقامة الكاملة حالةٌ من الصدق والوفاء لا يضرها أي ابتلاء بتاتا؛ أي هي صلة متينة لا يمكن أن يقطعها السيفُ، ولا تحرقها النارُ، ولا تُضعفها أية آفة أخرى، ولا يصرمها موتُ الأعزة، ولا يخل بها فراقُ الأحبة، ولا يُرهب صاحبَها خوفُ الهوان والذلة، ولا يُفزع قلبه القتلُ ولا المظالم المروعة. إن هذا البابَ ضيّقٌ جدًّا، وإن هذا الطريقَ جِدُّ وَعْرٍ.. ما أشدَّ وُعورتَه!! آهًا وألفَ آه!!

وإلى ذلك المعنى يشير الله جل شأنه بقوله: ﴿قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

توضح هذه الآية بجلاء أن الذين يحبون الأقارب والأموال على حساب مرضاة الله هم الآثمون في نظر الله تعالى، الهالكون لا محالة.. ذلك لأنهم آثروا على الله غيرَه.

فهذه هي المرتبة الثالثة التي يصير فيها ربانيا مَن يبتاع في سبيل الله آلاف البلايا، ويميل إلى الله بصدقٍ وإخلاص بحيث لا يبقى له أحد سواه، وكأن الجميع دونه قد ماتوا. فالحق أننا لن نرى الإله الحي ما لم نمت نحن. إن يوم تجلي الله هو ذلك اليوم الذي يطرأ فيه الموتُ على حياتنا المادية. إننا عميانٌ ما لم نصبح عميانا عن رؤية غير الله؛ وإننا أموات ما لم نصبح كالموتى في يد الله. فإذا ما استوى وجهنا تجاهه تماما ظفرنا حينئذ بالاستقامة الحقيقية التي تغلب الشهواتِ النفسانية كلها، أما قبل ذلك فلا. وهذه هي الاستقامة التي تجلب الموت على حياة يعيشها الإنسان لنفسه.

إن استقامتنا هي كما يقول سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (البقرة:١١٣).. أي ضعوا رقابكم بين يدي. وهكذا فسوف يمكن لنا الوصول إلى درجة الاستقامة إذا ظلت كل جارحة من أجسامنا، وكل قوة من نفوسنا تعمل في سبيله تعالى، وأضحت

حياتنا وموتنا له وحده، كما يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣).

آثار الاستقامة الصادقة

فإذا بلغ الإنسان في محبة الله تلك الدرجةَ التي يصبح فيها موتُه وحياته لله لا لنفسه، فإن الإله الذي لم يزل منذ الأزل يحب محبيه، يشمله عندئذ بمحبته، فينشأ في الإنسان من امتزاج المحبتين نور عجيب.. لا تعرفه الدنيا ولا تستطيع فهمه. ولقد سُفكت دماء آلاف الصديقين والأخيار.. فقط لأن الدنيا لم تعرفهم. ولقد رُمُوا بتهمة الاحتيال والأنانية لأن الدنيا لم تستطع أن تبصر وجههم النوراني، كما يشير قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)

فمِن اليوم الذي ينشأ فيه ذلك النور يصير هذا الإنسانُ الأرضي سماويا، وينطق في داخله مَن هو مالكُ كل كائن، ويُري تجلياتٍ من ألوهيته، ويتخذ مِن قلبه المفعم بالحب الخالص عرشا له. وعندما يتحول هذا الإنسان بانقلاب نوراني إلى إنسان جديد، يصبح الله له إلها جديدا، ويُظهِر له الجديدَ من سُنَنِهِ وعاداته. ولا يعني ذلك أن الله -سبحانه- يعتريه التجددُ عندئذ أو يكتسب عادات جديدة..

وإنما المراد أن الله يبدي لأجل هذا العبد شؤونا تختلف عن شؤونه المشهودة عموما.. ولا تدري عنها فلسفةُ الدنيا شيئا. فيكون هذا الإنسان مصداقا لقوله جل شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٨).. أي أن أفضلَ الناس مَن يتفانون في ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويشترون رضوانه بنفوسهم؛ وهؤلاء هم الذين تشملهم رحمةُ الله. وكذلك فمن حاز درجة الروحانية حقًا ضحى بنفسه في سبيل الله تعالى.

يقول الله في هذه الآية: إنما ينال النجاةَ من كل الآلام مَن يبيع نفسه في سبيلي ونيل مرضاتي، ويُثبِت ببذل نفسه أنه لله تعالى، ويرى أن كيانه كله لم يُخلق إلا لطاعة الله وخدمة المخلوق. ثم يأتي بالحسنات الحقيقية التي تتعلق بكل ملكة من ملكاته.. برغبةٍ وشوقٍ، وحضورِ قلبٍ.. وكأنما هو ناظرٌ في مرآةِ طاعتِه إلى حبيبه الحقيقي.. حتى إن إرادته توافق إرادة الله تماما، وتنحصر لذتُه كلها في طاعته، وتصدر عنه جميعُ الأعمال الصالحات على سبيل اللذة وليس عن طريق المشقّة.

هذه هي الجنة الدنيوية التي يحظى بها الإنسان الرباني فورًا. وأما جنة الآخرة فما هي في الحقيقة إلا آثار هذه الجنة الحاضرة وأظلالها،

وسوف تمثّلها القدرة الإلهية في العالم الثاني عيانًا في صور حية محسوسة. وإلى هذا المعنى أشار الله عَزَّ وَجَلَّ إذ قال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٤٧)،

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان:٢٢)،

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان:٦-٧)،

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ (الإنسان:١٨-١٩)،

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالا وَسَعِيرًا﴾ (الإنسان: ٥)،

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الإسراء:٧٣).. أي أن من يخشى ربه وتستولي عليه الرهبة لعظمة الله وجلاله فله جنتانِ: إحداهما في هذه الدنيا، ثم الجنة الثانية في الآخرة. وهؤلاء الذين تفانَوا في الله سقاهم ربهم شرابا طهر قلوبهم وأفكارهم ونيّاتهم. وأن الأبرار يشربون شرابا مُزج بالكافور، ويشربون من عينٍ هم بأنفسهم يفجرونها تفجيرا.

حقيقة شراب الكافور والزنجبيل

قلت فيما سبق إنَّ كلمة "كافور" قد استُعملت في الآية لأنها مشتقة من مادة "ك ف ر" التي تعني في اللغة العربية التغطيةَ والإخفاء، وفي ذلك إشارة إلى أنهم قد شربوا بكل إخلاص كأسَ الانقطاع والرجوع إلى الله حتى بردت فيهم محبةُ الدنيا تماما. والقاعدة أن جميع الميول إنما تنشأ من خواطر القلب، فإذا تسامى القلبُ تماما عن الخواطر الفاسدة، ولم تبقَ له أيةُ علاقة بها، أخذت تلك الميولُ الفاسدة تتضاءل شيئا فشيئا حتى تتلاشى تماما. فهذا هو المعنى الذي أراده الله هنا، وأخبرنا بهذه الآية أن مَن مالوا إلى الله ميلا كاملا ابتعدوا عن شهوات النفس غاية البعد، وجنحوا إلى الله بحيث بردت قلوبهم من محبة الشواغل الدنيوية، وخمدت شهواتهم كما يُخمد الكافور نيرانَ السموم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا﴾ (الإنسان:١٨) ولنعلم أن كلمة "الزنجبيل" مركبة من كلمتين: "زنأ" و"جبل"، ومعنى "زنأ" في اللغة العربية صعد، فكأن الجملة المركبة "زنأ جبل" تعني: صَعَد الجَبَل.

ولنعلمْ أن الإنسان يمرّ ما بينَ انحسار الداء السامّ عنه وقبل استرداد صحته كاملةً بحالتين: أولاهما أنه تزول عنه شدة السموم

كليةً، وتهدأ وطأة الموادّ المهلكة، وتنتهي هجمة التأثيرات السامّة بسلام وعافية، ويسكن الطوفان المدمّر الذي طغى، إلا أن الوهن والضعف لا يزال في أعضائه، فلا يستطيع القيام بعمل يتطلب منه القوة، وإنما يكون أشبهَ بميت ويتعثر في المشي مرة بعد أخرى. وأما الحالة الثانية فهي حالة الشفاء الكامل.. إذ تعود إليه صحته الطبيعية، ويمتلئ البدن قوة ونشاطا يشجعه على أن يتسلق قمم الجبال دون مشقة، وأن يرتقي فوق التلال الشاهقة في نشاط وانبساط. وكذلك، فمثل هذه القوة إنما تتيسر للإنسان في الدرجة الثالثة من الارتقاء الروحاني، وإليه أشار الله في الآية المذكورة إذ يقول: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا﴾.. أي أن أولياء الله الكُمل يستوفون نصيبا كاملا من القوة الروحانية، فيجتازون كُبْرَيات العقبات، وتتم على أيديهم صعاب الأمور، ويقدمون في سبيل الله تضحياتٍ تحير العقول.

تأثير الزنجبيل

وليكن واضحا أن من خصائص الزنجبيل في علم الطب - واسمه في الهندية (سونٹھ) - أنه يزيد طاقةَ الجسم كثيرا، ويمسك الإسهال.

وقد سُمّي "زنجبيلا" لأنه يقوّي الضعيف، ويبعث فيه حرارة وطاقة بحيث يمكّنه من تسلّق الجبال.

وقد أراد الله من سرد هذه الآيات -المتقابلة في المعنى إذ ذكر في الأُولى الكافورَ وفي الثانية الزنجبيل- أن يبيّن لعباده أن الإنسان إذا تحرك نحو الصلاح مُقلِعا عن شهوات النفس.. بدت فيه أولا حالةٌ تُخمد مواده السامة، وتأخذ شهواتُ نفسه في النقصان.. كما يُسَكِّن الكافور حدةَ السموم، فهو لذلك ينفع في الكوليرا والحمَّى التيفيَّة.

ومتى زالت عن المريض شدة السموم تماما، واستعاد الصحة مع ضعف شديد.. بدأت مرحلةٌ ثانية يتقوى فيها المريض الناقِهُ من شراب الزنجبيل. وشراب الزنجبيل في الروحانية هو تجلي الله بجماله وجلاله على عبده، ذلك التجلي الذي هو بمنـــزلة الغذاء للروح. فإذا تقوى الإنسان بالتجلي الرباني استطاع أن يصعد الجبالَ العالية الشاهقة، وينجز الأعمال الشاقة المحيرة التي لا يقدر أحد على إنجازها أبدا ما لم يكن قلبه مفعَمًا بحرارةِ حب كهذه. ولبيان هاتين الحالتين استخدم الله كلمتين عربيتين: إحداهما "الكافور" ومعناها المُسَكن المغطي، والثانية "الزنجبيل" ومعناها الصاعد. وهكذا يجتاز السالكون هاتين المرحلتين في سلوكهم الروحاني.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالا وَسَعِيرًا﴾ (الإنسان:٥).. فمعناه أن الذين لا يبتغون الله من صميم أفئدتهم.. يردهم الله إلى الأسفل، فيُبتلون بالإخلاد إلى الدنيا باستمرار، فيصبحون كأنهم مقيدون بالسلاسل، ويبقون دائما مائلين إلى الشواغل الأرضية.. كأنما أعناقهم قد شُدت بالأغلال التي لا تَدَعُهم يرفعون رؤوسهم نحو السماء، وتحترق قلوبهم بنيران الحرص والهوى.. يودّون أن يحصلوا على هذا المال ويقتنوا ذلك العقار، ويملكوا كذا من البلاد، ويقهروا فلانا من الأعداء، وأن يكون لديهم مقدار كذا من الثروة والغنى. وبما أن الله يرى أنهم لا خير فيهم، بل يجدهم منغمسين في المعاصي، لذلك يبتليهم بهذه البلايا الثلاث.

سُنة الفعل ورد الفعل

وفي الآية إشارة أيضا إلى أن الإنسان إذا فعل فعلا قابَلَه الله بفعل من عنده. فمثلا.. إذا أوصد الإنسانُ كل أبواب حجرته، أَتْبَع الله فعلَه هذا بفعل منه.. بأن يُطبق عليه الحجرة بالظلام. ذلك لأن كل ما يترتب على أفعالنا من نتائج بمقتضى القوانين الطبيعية إنما هو في الحقيقة أفعاله سبحانه وتعالى.. فهو العلةُ النهائية لجميع العلل.

كذلك لو أن أحدا ابتلع سما زعافا.. كان فعلُ الله بعد فِعله هذا أن يُهلكه. وكذلك إذا اقترف أحد فعلا مشينا من شأنه أن يعرضه للعدوى فإن الله يُعقب فعلَه هذا بفعلٍ منه فيصيبه الداء الخبيث. إذن، فكما نشاهد بكل وضوح في حياتنا الدنيوية أن لكل عمل من أعمالنا نتيجة محتومة.. هي مِن فِعل الله تعالى.. كذلك تماما يسري نفسُ القانون في أمور الدين، كما يصرح الله بذلك في هاتين الآيتين:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٧٠)،

﴿فَلَما زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: ٦)..

أي أن الذين بذلوا الجهد كله في ابتغاء مرضاة الله، سنجزيهم مقابل ذلك هداية إلى سبيلنا حتمًا، وأما من اعوج ولم يُردِ السيرَ على الطريق المستقيم قابل الله فعلَه هذا باعوجاج قلبه.

وقد وصف الله هذه السُنةَ الربانية بأوضح بيان في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الإسراء:٧٣). وفي ذلك إشارة إلى أن الصالحين يتشرفون في هذه الدار برؤية الله، وأنهم في هذا العالم يحظون بلقاء محبوبهم الذي ضحوا لوجهه الكريم بكل شيء.

نشأة الحياة الفردوسية

فالمراد من الآية أن الحياة الفردوسية إنما يوضع أساسُها في هذا العالم نفسه، كما أن أصل العماية الجهنمية إنما هو العيشة النجسة العمياء في نفس هذا العالم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (البقرة:٢٦).

إن الله تعالى قد شبه هنا الإيمانَ بالجنة التي تجري فيها الأنهار. وليكن واضحا أنه قد ضمن هذا التشبيهَ فلسفة عُليا، ونبهنا به إلى أن العلاقة التي توجد بين البستان والأنهار هي نفسها بين الإيمان والأعمال. فكما أن أي بستان لا يمكن أن يبقى مخضرا نضِرا بدون الماء، كذلك الإيمان لا يسمى إيمانا حيا بدون الأعمال الصالحة. فإذا وُجد الإيمان و لم توجد الأعمال فلا قيمة لهذا الإيمان، وإذا كانت الأعمال و لم يكن الإيمان كانت رياءً.

حقيقة الجنة والجحيم

إن الجنة الإسلامية حقيقتها أنها ظِل لإيمان الإنسان وأعماله في الحياة الدنيا.. وما هي بشيء جديد يتلقاه الإنسان من الخارج، بل إن جنة الإنسان تنشأ من باطن الإنسان نفسه، وأن جنة المرء إنما هي

إيمانُه وأعماله الصالحة التي يبدأ في التلذذ بها في هذا العالم نفسه. فيتراءى له في باطنه الإيمانُ حدائقَ والأعمالُ أنهارًا.. ثم في الآخرة سيشاهدهما عيانا. إن كتاب الله الكريم يعلّمنا أن الإيمان الصادق الخالص الراسخ الكامل بالله وصفاته وإراداته جَنّةٌ نضرة وشجرة مثمرة، وأن الأعمال الصالحة أنهار هذه الجنة.. كما يقول سبحانه وتعالى:

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ (إبراهيم:٢٥-٢٦)

.. أي أن الكلمة الإيمانية الخالية من كل إفراط وتفريط، ونقص وخلل، وكذب وهزل، والكاملةُ من جميع الوجوه.. تماثل الشجرة الطيبة السليمة من كل العيوب، التي جذورها متأصلة في الأرض وفروعها عالية في السماء، والتي تؤتي ثمارها دائما، ولا يأتي عليها وقت تخلو فيه أغصانها من الثمر.

وبتشبيه الكلمة الإيمانية بشجرة دائمة الثمر.. ذكر الله هنا ثلاث علامات للإيمان:

الأولى: أن يكون أصل الإيمان، أي معناه الحقيقي، ثابتا في أرض القلب. وذلك يعني أن تكون الفطرة الإنسانية والضمير قد سلما بحقانيته وأصالته.

والعلامة الثانية: أن تكون فروعها في السماء.. بمعنى أن يكون الإيمان مقرونا بالبراهين العقلية بحيث توافقه السننُ السماوية التي هي من أفعال الله تعالى. والمراد أن يكون بإمكاننا التدليل على صحته وأصالته بأدلة مستنبَطة من النواميس الطبيعية، وأن تكون تلك الأدلة من السمو وكأنها في السماء.. ولا يمكن أن تصل إليها يد الشبهات.

والعلامة الثالثة: أن تكون ثمارها الصالحة للأكل دائمة غير منقطعة. والمراد أن تكون للإيمان -بعد العمل به- تأثيراتٌ محسوسة وبركات مشهودة دائما أبدا، وفي كل زمن، وليس أن تظهر هذه البركات في زمن معين ثم تنقطع.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم:٢٧).. أي أنها كلمة لا تقبلها الفطرة البشرية، ولا تستقيم هي بحال من الأحوال أبدا، أمام البراهين العقلية أو القوانين الطبيعية، أو أمام صوت الضمير.. بل إن هي إلا روايات أو أقاصيص.

وكما شبّه القرآن المجيد أشجارَ الإيمان الطيِّبة بالعنب والرُمّان وغيرهما من الفواكه الطيبة، وذكر أنها ستتمثل في عالم الآخرة وتتراءى في صور هذه الثمرات.. كذلك شبه كلمةَ الكفر الخبيثة بشجرة الزقوم في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ

شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات: ٦٣-٦٦). وكذلك قال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * ... * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٤٤-٥٠)

.. بمعنى: أي الضيافتين خيرٌ مقاما.. أرياضُ الجنة أم شجرة الزقوم التي هي بلاء للظالمين؟ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم.. أي أنها تنشأ من الكِبر والزهو لأنهما جذور جهنم. نُوارها كأنه رؤوس الشياطين. والشيطان يعني الهالك، وهو مشتق من الشيْط، والمقصود من الآية أن أكله سوف يسبب الهلاك.

ثم قال إن شجرة الزقوم طعام الذين يرتكبون السيئات عمدا، وأنه كالمُهل.. أي النحاس الذائب، يغلي في البطون كغليان الماء.

ثم خاطب نـــزيلَ جهنم قائلا: ذُقْ من هذه الشجرة يا صاحب العزة والكرامة! وهذا الخطاب تعبير عن الغضب الشديد، والمراد: لو لم تتكبر ولم تُعرض عن الحق بسبب عزتك وكرامتك الدنيوية لم تذق اليوم كل هذه المرارات.

وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يشير أيضا إلى أن كلمة "الزقوم" مركبة في الأصل من "ذُقْ" و "أَمْ". و "أم" مختصر من

قوله ﴿إِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حيث أُخذ الحرف الأول من بداية الجملة والحرف الأخير من الجملة، وبُدل "ذ" إلى "ز" لكثرة الاستعمال.

وخلاصة القول إن الله تعالى مثل كلمة الكفر التي هي من هذه الدنيا بالزقوم واعتبرها شجرة الجحيم، كما مثل كلمة الإيمان التي هي من هذه الدنيا بالجنة المثمرة، وهكذا وضح أن الفردوس والجحيم إنما ينجم أصلهما في الحياة الدنيا، كما وصفَ سبحانه جهنم في موضع آخر قائلا: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (الْهُمَزَة:٧-٨).. أي أن جهنم هي نار منبعها غضب الله وتشتعل بالمعصية، وتتغلب أولا على القلب. وهذا إشارة إلى أن أصل هذه النار إنما هي تلك الهموم والحسرات والآلام التي تأخذ بالقلوب، ذلك لأن كل أنواع العذاب الروحاني تبدأ من القلب أولا ثم تستولي على الجسد كله.

وقال الله في موضع آخر: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٥).. أي أن الوقود الذي يُبقي نارَ الجحيم مضطرمةً على الدوام عبارةٌ عن شيئين: أولهما الناس الذين نسوا الإله الحقيقي وأخذوا يعبدون ما سواه من المخلوقات، أو الذين يدعون الآخرين أن يعبدوهم.. كما يقول الله عنهم: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ

حَصَبُ جَهَنَمَ﴾ (الأنبياء: ٩٩).. أي سوف تُلقَون في جهنم أنتم وآلهتكم الباطلة الذين نصَّبوا أنفسهم آلهة مع كونهم من البشر. والثاني: الأصنام والأنصاب، إذ لولاها لما وُجِدت جهنم أيضا. لقد تبين من جميع هذه الآيات أن الجنة والجحيم - بحسب كلام الله القدسي - ليستا ماديتين كهذا العالم المادي، وإنما منشؤهما أمور روحانية سوف تُشاهَد بأشكال متجسمة في عالم الآخرة، ومع ذلك لن تكون من هذا العالم المادي.

الوسيلة لإنشاء علاقة روحانية كاملة بالله تعالى

نعود الآن إلى مقصدنا الأصلي ونقول: إن ما هدانا إليه القرآنُ المجيد من وسيلة للوصال بالله وصالا روحانيا كاملا هو "الإسلام" و"دعاء سورة الفاتحة".. أي أن يقف الإنسانُ حياتَه كلها في سبيل الله، ثم يستمر في الدعاء الذي علمه الله المسلمين في سورة الفاتحة. وهذان الأمران -الإسلام ودعاء الفاتحة - هما مغزى الإسلام كله. هذه هي الوسيلة المثلى للوصول إلى الله، ولشُرْب ماء النجاة الحقيقية. بل إنها الذريعة الوحيدة التي سنها قانون القدرة لتطور أسمى للإنسان ولوصاله بالله. وإنما يظفر بالله مَن يقتحمون النار الروحانية

التي يشير إليها معنى الإسلام.. ويعكفون على الابتهال بدعاء الفاتحة.

معنى الإسلام

ما هو الإسلام؟ إنه نار المحبة المتوقدة التي تُحرق حياتَنا السفلى.. وتحرق آلهتَنا الباطلة، ثم تضع أنفسنا ونفائسنا وأعراضنا قربانا بين يدي الإله الحق القُدوس. وبورود هذا المَعين نشرب ماء حياة جديدة، وترتبط ملكاتُنا الروحانية كلها بالله ارتباطَ الخيط بالخيط، وتسطع من داخلنا نارٌ كنار البرق، ونارٌ أخرى تنـــزل علينا من أعلى؛ وبامتزاج هاتين الشعلتين يحترق كل ما في قلوبنا من هوًى وهوسٍ ومحبة لغير الله، ويُقضى على حياتنا الأولى. هذه الحالة تسمى "الإسلام" في اصطلاح القرآن المجيد.

آثار الحياة الروحانية

بالإسلام يطرأ الموت على ميولنا النفسانية، ثم بالدعاء نحيا من جديد. وهذه الحياة الثانية تستلزم نـــزولَ الوحي الرباني. والوصولُ إلى نفس هذا المقام يسمى اللقاءَ الإلهي.. أي لقاء الله ومشاهدته. ومتى بلغ الإنسان هذه الدرجَة يتصل بالله اتصالا وكأنه يراه بعينه،

ويُعطى قوةً، وتُنار حواسه وملكاته الباطنة كلها، وتبدأ الحياة القدسية تجتذبه بكل شدة. وهنالك يصبح الله تعالى للإنسان عينًا يبصر بها، ولسانا ينطق به، ويدًا يبطش بها، وأذنًا يسمع بها، وقدمًا يمشي بها. وإلى هذه المرتبة تشير الآية:

﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١١).. أي أن يده (ﷺ) هي يد الله التي فوق أيديهم، والآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٨).

وخلاصة القول إن الإنسان في هذه المرتبة يتحد بالله تعالى اتحادا كاملا، وتسري مشيئة الله الخالصة في كل ذرة من كيانه، وتبدو حينئذ قواه الأخلاقية -التي كانت من قبل واهنة- كالجبال الراسيات، ويبلغ عقله وفراسته الغاية في اللطف. وهذا هو المراد من الآية: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٣).

ففي هذه الحالة تتدفق أنهارٌ من محبة الله وعشقه.. بحيث يصبح سهلا هينا على الإنسان أن يموت في سبيل الله ويتحمل لأجله صنوف العذاب والخزي والهوان، وكأن ذلك كله لا يساوي عنده كسْرَ قشة. إنه ينجذب إلى الله انجذابا ولا يدري من يجذبه. إن يدًا من الغيب تحمله وتسير به؛ وإن تحقيق مشيئة الله وإرادته يصبح أصل أصول حياته. وفي هذه المرتبة يرى هذا الإنسان ربه جد قريبٍ كما

يقول سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧)؛ وكما أن الثمرة إذا نضجت لم تلبث أن تسقط من تلقائها، فكذلك الإنسان عندما يصل إلى تلك الدرجة.. تنعدم علاقاته السلفية كلها.. وتزداد صلته بربه عمقًا وتوثقًا، ويبتعد عن المخلوق بعدًا، ويتشرف بكلام الله وحديثه.

باب الوحي مفتوح

والآن أيضا لا تزال الأبواب مفتوحة للوصول إلى هذه المرتبة كما كانت مفتوحة في السابق، ولا ينفك الله يَهَب هذه النعمة لمن ينشدونها كما كان يهبها من قبل. ولكن هذا الصراط لا يهتدي إليه الإنسان بثرثرة اللسان فقط، ولا يُفتح هذا الباب بكلمات فارغة وبأمور لا أساس لها. إن الطلاب كثيرون، ولكن قل من يجدون.. فما السبب في ذلك يا ترى؟

أن بلوغ هذا المقام موقوف على كفاح صادق وتضحية مخلصة. تحدثوا ولو إلى يوم القيامة فلن يحدث شيء. إن أول شرط للسلوك في هذا السبيل أن يضع الإنسان –بكل صدق– أقدامه في نار يفر منها الآخرون خائفين. إذا لم يكن في المرءِ حماسٌ عملي فلا نفع في هتافاتٍ فارغة. يقول الله في هذا الشأن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي

فَإِني قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٧).. أي لو سألك عبادي أين أنا؟ فقل لهم: إنني قريب جدًّا منهم. إنني أستجيب دعاء من يدعوني. فعليهم أن يبتغوا وصالي بالدعاء، وليؤمنوا بي كي يفلحوا.

السؤال الثاني

كيف تكون حالة الإنسان بعد الموت؟

أقول في جواب هذا السؤال: إن حالة الإنسان بعد الموت ليست في الحقيقة حالةً جديدة، بل إن حالة حياته الدنيوية نفسها هي التي تنكشف يومئذ بجلاء أكبر. إن كيفيات العقائد والأعمال -صالحة كانت أم طالحة- تكون كامنةً في باطن الإنسان في هذا العالم، وتبعث في كيانه تأثيرا خفيا مفيدا أو ضارا، وأما في العالم الأخروي فلن يظل الأمر هكذا، بل إن كل هذه الأحوال سوف تنكشف انكشافا واضحا. ونجد مثال ذلك في عالم الرؤيا، فإن الحالة الغالبة على الجسم تتراءى في عالم المنام في صورة مجسمة. فمثلا كثيرًا ما يرى المريض في منامه النار ولهيبها قبيل إصابته بالحمى، ويرى المصاب بالإنفلونـــزا والزكام والرشح أنه في الماء. وهكذا، فإن حالة المرض التي يدخل فيها الجسم تتمثل كيفياتها في عالم المنام.

حقيقة نعيم الجنة

فبالتدبر في عالم المنام يستطيع كل إنسان أن يدرك أن هذه السنة جارية أيضا في الآخرة. فكما أن المنام يُحدث فينا تغييرا معيَّنا.. ويرينا الحالة الروحية في صورة مجسمة.. كذلك يحدث في ذلك العالم، فتتمثل يومئذ أعمالُنا ونتائجها أمامنا في صور محسوسة، ويلوح على وجوهنا بوضوح كل ما نكون قد اصطحبناه من هذا العالم في صورة خفية. وكما أن النائم يوقن بأن ما يراه من تمثلات شتى أمورٌ حقيقية، ولا يتوهم أبدًا أنها تمثلات، كذلك يحدث في ذلك العالم، بل الواقع أن الله سوف يظهر قدرته الجديدة يومئذ بواسطة التمثلات.. لأنه تعالى هو القدرة الكاملة. والحقيقة أنه لو سمينا هذه التمثلات خلقًا جديدًا أو حياة جديدة تَمّت بقدرة الله تعالى لكان قولنا صحيحا في الواقع. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٨).. يعني لا تدري أية نفسٍ صالحةٍ النعيمَ الذي أُخفي لها في عالم الآخرة. لقد وصف الله هنا جميع نِعَم الآخرة بأنها مخفية عنا.. لا مثال لها في النعم الدنيوية. والواضح أن نعم الدنيا غير خفية علينا، فإننا نعرف اللبن والرمان والعنب ونأكل منها دوما. فيتبين من ذلك أن نعم العالم الثاني هي غيرُ ما في هذا العالم، وإنما تشترك مع هذه في الاسم فقط.

فمن ظن أن الجنة عبارة عن موجودات هذه الدنيا فلم يفهم من القرآن حرفا.

يقول سيدنا ومولانا ونبينا ﷺ في شرح الآية المذكورة.. وهو يصف الجنة ونعيمها: "أَعَدَّ الله لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلب بَشر".. مع أننا نرى نِعم الدنيا بأعيننا، ونسمع عنها بآذاننا، وهي تمر بخواطرنا. فما دام الله ورسوله يصفان نعيم الفردوس بكونه شيئا غريبا.. فنكون إذن قد انحرفنا عن القرآن انحرافا كبيرا لو ظننا أن في الجنة أيضا لبنا ماديا كهذا الذي يُحلب من البقر والجاموس.. وكأنما يكون فيها قطعان من حيوانات حلوبة! وكأن النحل تكون قد بنت هنالك في الأشجار كثيرا من الخلايا، والملائكة يبحثون عنها ويشتارون منها العسل ويصبّونه في الأنهار! هل هناك أية علاقة بين أفكار كهذه وبين ذلك التعليم السامي الذي تنطوي عليه آيات عديدة حيث تعلن أن تلك الأشياءَ لم ترها الدنيا قط، وأنها تنير الروحَ وتزيد معرفةً بالله، وأنها أغذية روحانية. هذه الأغذية -وإن كانت قد صُوّرت لنا بصورة مادية- إلا أن الله قد نبّه أيضا إلى أن منبعها هو الروح والصدق.

وقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلمَا رُزِقُوا مِنْهَا

مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ (البقرة:٢٦).. أي بَشِّرِ المؤمنين الذين يقومون بأعمال صالحة، ولا يوجد فيهم ذرة من الفساد.. أهم ورثة الجنة التي تجري خلالها الأنهار، وأنهم كلما نالوا من ثمار تلك الأشجار التي قد نالوا منها في الدنيا أيضا.. قالوا إنها نفس الثمار التي قد أوتيناها من قبل، لأنهم سيجدون هذه الثمار شبيهةً بالثمار الأولى. ولا يظنن أحدٌ أن الثمار الأولى في الآية تعني نِعَمًا مادية من هذه الدنيا. كلا، إنه خطأ فاحش ومخالف تماما لمفهوم الآية ومغاير لمعناها البديهي. وإنما المراد الإلهي من الآية أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. قد غرسوا بأيديهم جنةً.. أشجارُها الإيمان.. وأنهارُها الأعمال الصالحة، وسيأكلون من ثمار هذه الجنة نفسها في الآخرة، وتكون ثمارها يومئذ أبرزَ صورةً وأحلى طعما. وبما أنهم يكونون قد أكلوا من هذه الثمار من قبل في الدنيا بصورة روحانية، لذلك سوف يعرفون تلك الثمرات في الدار الآخرة، ويقولون: يبدو أنها نفس الثمار التي سبق أن أكلناها، حيث يجدونها مشابهة لغذائهم الأول.

فالآية المذكورة تبين بصراحة أن الذين كانوا في الحياة الدنيا يتغذون بغذاء المحبة الإلهية.. سيُرْزقون هذا الغذاء يوم الآخرة رزقا مجسما. وبما أنهم يكونون قد ذاقوا لذة الحب والوداد.. وعرفوا

كيفيتها، لذلك تتذكر أرواحهم ذلك الزمن الذي كانوا يناجون فيه حبيبَهم الحقيقي بحب ووَلَهٍ، وكانوا يستمتعون بذكره، منفردين في الزوايا والخلوات وظلمات الليل. فلا ذكر هنا للأغذية المادية أبدا.

ولئن خطر ببال أحد أنه ما دام العارفون قد رُزقوا من هذا الغذاء الروحاني في الدنيا وكانوا يعرفونه.. فكيف يصحّ وصفُ نعيم الآخرة بأنه ما لم يرَه أحد أو لم يسمع عنه أحد أو لم يخطر بقلب بشرٍ.. فذلك يستلزم تناقضًا بين الآيتين المذكورتين؟

فالجواب: إنما يتحقق التناقض إذا كان المقصود من كلمات الآية نعيمَ الدنيا، ولكن ليس المراد هنا نعيمَ الدنيا.. فكل ما يتلقاه العارف هنا بطريق العرفان إنما هو في الحقيقة من النعيم الأخروي، الذي يوهب له منه شيء ههنا على سبيل العينة ترغيبا وتشويقا.

اعلموا أن الإنسان الرباني ليس من هذه الدنيا، ومن أجل ذلك تمقته الدنيا؛ ولكنه من السماء.. فلذلك يُعطى النعمةَ السماوية. الإنسان الدنيوي ينال نعم الدنيا، والإنسان السماوي يظفر بالنعم السماوية. فالحق كل الحق.. أن النعيم السماوي قد أُخفي تماما عن أسماع الدنيا وأبصارها وقلوبها.. ولكن الذي طرأ الموت على حياته الدنيوية.. وسُقِي بالطريقة الروحانية تلك الكأسَ التي سوف يُسقاها في الآخرة بصورة جسمانية، سيتذكر شُربه الأول عندما تقدم له

نفس الكأس. ومن الحق أيضا أنه سوف يجد أن باصِرة الدنيا وسامعتَها كانتا في غفلة عن ذلك النعيم، ولكن بما أنه كان في الدنيا -وإنْ لم يكن منها- لذلك سوف يشهد أن ذلك النعيم الأخروي ليس من نعم الدنيا، إذ لم تر عينُه في الدنيا مثل هذه النعمة، و لم تطرق سمعه، و لم تخطر على قلبه، وإنما رأى نماذجَ نعمة الحياة الآخرة، التي لم تكن من هذه الدنيا، وإنما كانت بمنـــزلة بشير بالعالم الأخروي، وكانت ذات صلة به، و لم تكن تمتّ إلى الدنيا بصلة.

المعارف القرآنية الثلاث عن عالم المعاد

ولنتذكر أيضا قاعدة هي أن القرآن المجيد قد جعل للحالات التي سوف نمر بها بعد الموت ثلاث فترات، وهي ثلاث معارف قرآنية عن عالم المعاد.. نفصل كل واحدة منها على حدة فيما يلي:

المعرفة الأولى

يقول القرآن الكريم مرة بعد أخرى إنّ عالم الآخرة ليس شيئًا جديدًا، بل إن جميعَ مظاهره هي آثار هذه الحياة الدنيا وظلالُها، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (الإسراء:١٤).. أي أننا ربطنا

برقبة كل إنسان آثارَ أعماله، وأننا سوف نُظهر له هذه الآثار الخفية يوم القيامة، وسوف نريه إياها في شكل كتاب مفتوح.

وليكن معلوما عن كلمة "الطائر" الواردة في الآية أن معناها الأصلي هو الطير، ثم استُعيرت لمعنى العمل أيضًا.. ذلك لأن العمل، خيرا كان أو شرا، يطير ويختفي بعد وقوعه مثل الطير.. وتنعدم مشقته أو لذته بعد قليل، ويخلف في القلب أَثَرَه لطيفا أو كثيفا.

يؤكد القرآن المجيد أن كل عمل يترك أثرًا خفيا في نفس عامِله، وأن الله يقابل هذا العملَ -سواء أكان خيرًا أم شرا- بعمل من عنده ﷻ، فلا يَدَع ذلك العملَ ليضيع، بل تُرسَم آثارُه على القلب والوجه والعيون والأيدي والأرجل. وهذه الرسوم هي صحيفة الأعمال الخفية التي تنكشف جليا في الحياة الثانية.

ويخبرنا الله ﷻ عن أهل الجنة في موضع آخر بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (الحديد: ١٣).. أي أن نور إيمانهم الذي يحظون به في شكل خفي سوف يُرى يوم الآخرة وهو يسعى أمامهم وعلى يمينهم.

وفي موضع آخر يخاطب الله الفجارَ بقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التكَاثُرُ * حَتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ

* ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (سورة التكاثر).. أي أن كثرة الأهواء المادية والرغبات الدنيوية قد شغلتكم عن ابتغاء الحياة الآخرة، حتى وقعتم في القبور. فإياكم وحُب الدنيا، فسوف تعلمون أنه لا خير في حب الدنيا. وأؤكد لكم أن لا خير في حبها. ولو أنكم علمتم علمَ اليقين لرأيتم الجحيمَ في هذه الدنيا نفسها. ثم إنكم سوف ترونها رؤية اليقين في عالم البرزخ. ثم إنكم يوم حشْر الأجساد تعلمونها حق اليقين.. لا بالمشاهدة فقط، بل بالحال الواقع، إذ تؤاخَذون بشدة، ويغشاكم العذاب كاملا.

ثلاثة أقسام للعلم

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات صراحة أن الحياة الجهنمية موجودة للفجار في هذا العالم نفسه وجودا خفيا، ولو أنهم فكروا لأبصروا جحيمهم ههنا.

وقد قسم الله العلمَ هنا ثلاث درجات: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. ولكي يفهم عامة الناس هذه المراتب العلمية.. أضرب ثلاثة أمثلة: إذا رأى الإنسان دخانا كثيفا عن بُعد، وانتقل ذهنه من الدخان المتصاعد إلى النار المشتعلة، واستيقن وجودها هنالك قِياسا على ما يوجد بين الدخان والنار من ترابط تام غير منفَك، إذ لا بد

أن تكون النار حيث يوجد الدخان.. ويسمّى هذا العلم علمَ اليقين. ثم إذا رأى لهبَ النار سُمي هذا العلم بالرؤية عينَ اليقين. وإذا دخل بنفسه في النار كان علمه هذا حق اليقين.

فالله تعالى يقول هنا: إنه فيما يتعلق بالجحيم فإن الإنسان يستطيع أن يعلمها علمَ اليقين وهو في هذه الدنيا، ثم إنه سيعلمها عينَ اليقين في عالم البرزخ، ثم يصل نفسُ هذا العلم إلى درجة كاملة هي حق اليقين في عالم حشر الأجساد.

العوالم الثلاثة

وليكن واضحا هنا أن القرآن المجيد يخبرنا بوجود ثلاثة عوالم.

العالم الأول هو الدنيا التي تسمى دارَ الكسب والنشأة الأولى، حيث يكتسب الإنسانُ الخير أو الشر. صحيح أن للأبرار في عالم البعث مجالا للرقي، إلا أن ذلك الرقي سيتيسر لهم بمحض فضل الله، ولا دخل فيه لكسب الإنسان أبدا.

عالم البرزخ

والعالم الثاني هو البرزخ. وكلمة "البرزخ" في اللغة العربية تعني أصلا الحاجز بين الشيئين، وقد سمي العالم الثاني بالبرزخ لوقوعه بين

النشأة الأولى وبين عالم البعث. وهذه الكلمة تطلق على العالم الوسط منذ القِدم، بل منذ أن خُلقت الدنيا. لذلك فهذه الكلمة بذاتها تتضمن شهادة عظيمة على وجود العالم المتوسط. وقد أثبتنا في كتابنا "مِنَن الرحمن" أن الكلمات العربية هي كلمات الله التي فاضت من فم الله سبحانه وتعالى، وأن العربية هي لغة الله القدّوس الوحيدة في الدنيا، وأنها أقدم اللغات، ومنبع جميع العلوم، وأُم الألسنة كلها، وأنها العرش الأول والعرش الآخِر للوحي الرباني. أما كونها العرشَ الأول للوحي الرباني فلأنها كانت كلامَ الله الذي لم يزل منذ القديم معه تعالى، ثم نــزل هذا الكلام في الدنيا، واتخذ أهلها منه لغاتهم. وأما كونُها العرشَ الأخير لوحي الله فلأن كتاب الله الأخير.. القرآن المجيد.. نــزل بالعربية.

فالبرزخ كلمة عربية، وهي مركبة من "بر" و "زخ"، ومعناها أنه قد انسد طريق كسب الأعمال وبات في حالة الخفاء.

والحالة البرزخية هي حالة ينحل فيها هذا التركيب الإنساني الفاني، ويتم انفصال بين الروح وهذا الجسد. وكما نرى أن الجسم يُلقى في حفرة، كذلك الروح تقع في حالة تشبه الحفرة.. كما تدل على ذلك كلمة "زخ".. لأن الروح وحدها لا تقدر على فعل الخير والشر الذي كانت قادرة عليه من قبل وقتما كانت متصلة بالجسد.

والواضح أن صحة الروح تتوقف على صحة البدن، فبإصابة واحدة في جزء معين من أجزاء الدماغ تزول الذاكرة، وبإصابة أخرى في جزء آخر منه تزول القوة الفكرية ويتلاشى الوعي والحواس. ولئن أصيب الدماغ بنوع من التشنج أو الورم، أو حصل به انسداد للدم أو أية مادة أخرى انسدادًا تاما أو جزئيا.. أصيبَ المرء فورا بالإغماء أو الصرع. وإنَّ تجاربنا المتكررة منذ القِدم لتدل على أن روحَنا عاطلة تماما بغير اتصالها بالجسم.

لا بد للروح من جسم

إذن فإنه لزعم باطل تماما أن نقول بأن الروح – مجرّدةً عن الجسم – ستحظى بالسعادة يوما ما. يمكن أن نقبل هذا الزعم كخرافة.. إلا أنه لا يؤيده برهان معقول. إننا لا نستطيع أن نتصور مطلقا كيف تبقى الروح على حالتها الكاملة إذا حُرمت تماما من علاقتها بجسد ما.. مع أنها –على ما نعلم عنها– تضطرب عند كل خلل ولو بسيط يطرأ على الجسد. أفلا توضّح لنا التجارب اليومية أن أن صحة الجسم ضرورية لصحة الروح؟ عندما يصبح الإنسان شيخا فانيا.. تشيخ روحه أيضا وتهرم.. ويختلس سارقُ الشيخوخة منه بضاعةَ علمه.. كما يقول الله تعالى: ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ

شَيْئًا﴾ (الحج: ٦).. أي عندما يصير الإنسان شيخا هرِمًا يبدو – رغم دراسته وقراءته – كأنه صار جاهلا.

لذلك فمشاهدتنا تشكل دليلا قاطعا على أن الروح لا شيء بدون الجسم. ثم إنَّه لمن الأمور التي تهدي الإنسان إلى الحقيقة أنه إذا كانت الروح تستطيع القيام بذاتها بشكل مستقل عن الجسد فلماذا ربطها الله تعالى بالجسد الفاني عبثا دونما سبب؟

وجدير بالاعتبار أن الله خلق البشر لرقي غير محدود، فما دام الإنسان لا يستطيع أن يحرز رقيًّا في هذه الحياة القصيرة بغير معونة الجسم.. فكيف يُتصور أنه سيتمكن من إحراز تلك الترقيات التي لا نهاية لها بغير مرافقة الجسم؟

إذن فإن هذه الأدلة كلها تبين – وفقًا للتعليم الإسلامي – أنه لا بد للروح من مصاحبة جسم على الدوام لأداء واجباتها حق الأداء. صحيح أن هذا الجسم الفاني يفارق الروح عند الموت.. ولكنها في عالم البرزخ تُعَوضُ عنه بجسم آخر.. لتذوق به جزاءَ أعمالها إلى حد ما. ولا يكون ذلك الجسم من نوع هذه الأجسام.. وإنما يتكون من ظلمةٍ أو من نورٍ، بحسب نوعية أعمال الإنسان في هذه الدنيا، وكأن أعمال الإنسان هي التي تقوم مقام الأجسام في ذلك العالم. هكذا جاء في كلام الله مرارا وتكرارا حيث اعتبر بعض هذه

الأجسام نورانية وبعضها ظلامية، تكتسب نورها أو ظلمتها من الأعمال.

إن هذا السر، وإنْ كان في غاية العمق، إلا أنه ليس مما يرفضه العقل. فيمكن للإنسان الكامل أن ينال في نفس هذه الحياة كيانا نورانيًا غيرَ هذا الكيان الجسماني. وفي عالم الكشوف أمثلة كثيرة من هذا القبيل. إنه من الصعب إيضاح هذا الأمر لذي عقل محدود؛ ولكن الذي نال نصيبا من عالم الكشف لن ينظر إلى حقيقةِ تكوُّنِ جسمٍ من الأعمال نظرةَ استبعادٍ وعجبٍ، بل سوف يجد فيه متعة ولذة.

تجربة شخصية

وملخص القول: إن ذلك الجسم الذي يتكون بحسب نوعية أعمال الإنسان.. هو الذي يصير في عالم البرزخ واسطة لمجازاة الصالح والفاجر، وإني لصاحب تجربة في هذا الأمر. لقد حصل لي مرارا -في حالة اليقظة أن لقيتُ بعض الموتى كشفًا، ومنهم بعض الفاسقين والضالين.. فرأيت أن أبدانهم كانت مُسوَّدة وكأنها خلقت من الدخان. والخلاصة أن لي معرفة شخصية بهذا الطريق. وأقول

بكل قوة إنَّ كل واحد يُعطى حتمًا بعد الموت جسمًا، نورانيًا أو ظلاميًا، كما أخبر الله تعالى.

ومن الخطأ أن يحاول الإنسان إثباتَ هذه المعارف الدقيقة جدًّا بالعقل المجرد. فيجب أن نعرف أنه كما لا يمكن للعين أن تخبر عن مذاق الأشياء الحلوة، ولا يمكن للسان أن يرى الأشياءَ.. كذلك تماما لا يمكن للعقل وحده أن يحل عقدةَ تلك العلوم الأخروية.. التي لا تحصل إلا بالمكاشفات القدسية. إن الله تعالى قد جعل في هذه الدنيا وسائل مختلفة لمعرفة المجهول، فالتمِسوا كل شيء بوسيلته الخاصة تجدوه.

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن الله تعالى قد سمى في كلامه الفُجارَ الغواةَ أمواتًا، ووصَف الأبرار بأنهم أحياء. والسر في ذلك هو أن الذين يموتون غافلين عن الله تعالى.. تكون أسبابُ الحياة بالنسبة إليهم من أكلٍ وشرب قد انقطعت عند الموت، ولا يكون لهم نصيب من الغذاء الروحاني، فهم قد ماتوا في الحقيقة، ولا يعودون للحياة إلا ليذوقوا العذاب. وإلى هذا السر أشار الله في قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا﴾ (طه: ٧٥)، وأما الذين يحبون الله تعالى فهُم لا يموتون بهذا الموت، لأن معهم خبزهم وماءهم.

عالم البعث

ثم بعد البرزخ يأتي زمن يسمى عالم البعث، تتلقى فيه كلُّ روح جسمًا محسوسًا بيّنًا، صالحة كانت تلك الروح أم طالحة. وقد قُدر يوم ذلك المحشر للتجليات الربانية الكاملة، التي بفضلها يعرف كل إنسان ربه حق العرفان، ويبلغ كل واحد عندئذ الذروةَ من جزائه.

ويجب ألا يستغرب أحد أنْ كيف يستطيع الله فِعل ذلك! إنه سبحانه صاحب القدرة كلها، ويفعل ما يريد، كما يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوّلَ مَرّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * .... * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٧٨-٨٤)

.. أي ألم ير الإنسان أننا خلقناه من قطرةِ ماءٍ تُلقى في الرحم، ثم صار شخصًا كثير الخصومة، وبدأ يتحدث عنا بأنواع الحديث، ونسي كيف خُلِق هو، وبدأ يقول: كيف يمكن أن يحيا الإنسان مرة أخرى بعد أن تصير هذه العظام بالية؟ من ذا الذي يملك القدرة على

إحيائه؟ قل لهم: سوف يحييه الذي خلقه في المرة الأولى، فهو يعلم كيف يحيي وبأي طريقة يحيي.... إنما أمره أنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له "كُنْ" فيتكون هذا الشيء. إنه منــــزه عن كل عيب.. ذلك الذي له المُلك على كل شيء، وإليه يُرجَع الجميع.

فالله جل شأنه قد صرح في هذه الآيات أن لا شيء مستحيل عنده، فالذي خلق الإنسان من قطرة حقيرة.. هل يعجز عن بعثه مرة ثانية؟

إزالة سوء فهم

ربما يقول الذين لا يعلمون بأنه ما دام ثالثُ العوالِم.. أي عالَم البعثِ.. سوف يأتي بعد زمن طويل.. إذنْ فعالَم البرزخ أصبح بمنــــزلة سجنٍ يُعتقل فيه الصالح والفاسق طول تلك المدة.. الأمر الذي يبدو محض عبث.

والجواب أن مثل هذه الفكرة خطأٌ تماما، ومنشؤها الجهل المطلق! ذلك أن كتاب الله يذكر مقامين لجزاء البارّ والفاجر، أحدهما عالَم البرزخ الذي يلاقي فيه كل إنسان جزاءه لقاءً مخفيا.. فالأشرار يدخلون الجحيم بعد الموت فورًا، والأخيار كذلك سينالون الراحة في الجنة بعد الموت مباشرة. وفي القرآن المجيد آيات كثيرة تبين أن

كل إنسان يرى بعد الموت مباشرةً جزاءَ أعماله. فمثلا يخبرنا الله عن رجل من أهل الجنة بقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ (يس: ٢٧)، ويحكي سبحانه عن رجل آخر من أصحاب النار بقوله: ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٥٦).. أي أنه كان لرجل من أصحاب الجنة زميل، فلما ماتا افتقد صاحب الجنة زميله، فكشف الله له عنه فوجده في قعر جهنم.

إذن فعملية الجزاء والعقاب تبدأ بعد الموت فورًا، ويدخل أصحاب النارِ النارَ.. وأصحاب الجنةِ الجنةَ. ولكن هنالك بعده يومٌ آخر اقتضت حكمةُ الله البالغةُ أن يظهر عَجَّلَ فيه بتجلٍّ أعظم. إن الله تعالى خلق الناس ليعرِفوه بخالقيته، ثم إنه سوف يهلكهم أجمعين ليعرفوه بقهّاريته، ثم يحييهم حياة كاملة ويحشرهم في ميدان واحد ليعرفوه بقدرته الكاملة. هذه هي المعرفة الأولى من المعارف الثلاث المشار إليها سابقا.

المعرفة الثانية

وأما المعرفة الثانية.. التي ذكرها القرآن الكريم تبيانًا لعالم المعاد.. فهي أن جميع الأمور الروحانية في الحياة الدنيا ستتمثل في عالم المعاد مجسمة، سواء أكان عالم المعاد في طور البرزخ أم في طور البعث

والنشور. ومما قال الله في هذا الصدد: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الإسراء:٧٣).. والمراد أن العماية الروحانية التي يصاب بها أحد في الدنيا.. تتجسم في عالم المعاد محسوسة مشهودة.

كذلك يقول ﷻ في آية أخرى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة:٣١-٣٣) ..أي خذوا هذا الجهنمي، وضعوا الغُل في عنقه، ثم أحرقوه في الجحيم، ثم صفدوه في إحدى السلاسل التي طولها سبعون ذراعا.

تبيِّن الآيات أن عذاب الدنيا الروحاني سوف يتجسد في عالم المعاد. فطوْقُ الشهوات الدنيوية الذي كان قد أخضع رأس الإنسان إلى الأرض سوف يتراءى في صورة غُلٍّ يطوّق العنق؛ وسلاسلُ الشواغل الدنية ستظهر في صورة أصفاد تقيد الأرجل، ولوعات الأماني المادية ستُرى يومئذ نارا ملتهبة ظاهرة.

إن الإنسان الفاسق في الحياة الدنيا ليحمل في داخله جحيما من الشهوات والأهواء، ويشعر بحرقة هذه الجحيم عند الخيبة والخسران؛ ولذلك فإنه عندما يُقذف بعيدًا عن شهواته الفانية، ويغشاه القنوط الأبدي.. سوف يكشف الله له تلك الحسرات في صورة نار مجَسمة،

كما يقول ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ:٥٥).. أي سوف يوضع حاجز بينهم وبين شهواتهم، وهذه الحيلولة هي نفسها أصل عذابهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة: ٣٣).. فهو إشارة إلى أن الفاسق في أحيان كثيرة يُعمَّرُ سبعين سنة، بل كثيرا ما يُرزَق عمرًا أطول من ذلك للعيش في هذه الدنيا، بحيث يتاح له - باستثناء أيام الصبا والهرم - سبعون عاما من حياة خالصة صافية، يستطيع أن يقضيها في جد وعملٍ بحزم، ولكن ذلك الشقي يضيع هذه السنين من حياته الثمينة في الانهماك في مشاغل الدنيا.. ولا يريد أن يتحرر من قيودها. لذلك يقول الله تعالى إن السنين السبعين التي قضاها في قيود الشهوات الدنيوية.. سوف تتمثل يوم المعاد في شكل سلسلة طولها سبعون ذراعا، كل ذراع مقابل سَنةً من سِنِي حياته.

ظل ذو ثلاثة فروع

ويجب أن نتذكر هنا أن الله تعالى لا يصب من عنده على الإنسان أي مصيبة.. وإنما يعرض عليه ما ارتكب هو نفسُه من السيئات.. وتبيانا لهذه السنة نفسها يقول الله في موضع آخر: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ

ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ﴾ (المرسلات: ٣١-٣٢).. أي أيها الفجار الغواة امشوا إلى ظل ذي ثلاثة فروع، لا يهيئ لكم ظلا ولا يحميكم من الحر.

والمقصود بالفروع الثلاثة هنا هو الأقسام الثلاثة من قوى النفس: وهي القوى السبُعية، والقوى البهيمية، والقوى الواهمة. فالذين لا يُعدلون هذه القوى، ولا يصبغونها بالصبغة الأخلاقية.. يبرزها الله لهم يوم القيامة وكأنها ثلاثة فروع قائمة بلا ورق.. لا تحمي من الحر، ومن ثم سوف يحترقون بها.

وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى في أصحاب الجنة إظهارًا للسنة الإلهية المذكورة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ (الحديد: ١٣)

ويقول في آيةٍ أخرى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران: ١٠٧)

.. أي يومئذ سوف تصبح بعض الوجوه سوداءَ وبعضها بيضاءَ نورانية.

ويقول في مكان آخر: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد: ١٦).. أي أن مثال

الجنة التي ستوهب للمتقين كمثال بستان فيه أنهار من ماءٍ لا يفسد أبدا، ومن لبنٍ لا يتغير طعمه أبدا، ومن خمرٍ تجلب المتعة واللذة بدون أن تصيب شاربها بالسكر، ومن عسلٍ صافٍ للغاية لا كثافة فيه.

وصف تمثيلي لنِعَم الجنة

لقد بين الله هنا صراحة أن الجنة يمكن أن تُفهَم -على سبيل التمثيل- بأن فيها أنهارًا من النعم لا حد لها. ففيها أنهارٌ ظاهرة من ماء الحياة الروحاني الذي كان العارف يشربه في الدنيا شربا روحانيًا؛ وأنهار ظاهرة من اللبن الروحاني الذي كان يتغذى به كالطفل الرضيع في الدنيا غذاء روحانيا؛ وأنهارٌ من خمر المحبة الإلهية التي كان بسببها في نشوة روحانية دائمة في الدنيا.. يراها يومئذ ماثلةً أمامه، وأنهارٌ ظاهرة محسوسة من عسل الحلاوة الإيمانية الذي كان يدخل في فمه بصورة روحانية في الدنيا. وسوف يعرف كل واحد من أهل الجنة مستوى حالته الروحانية من أنهاره وبساتينه. وسوف يَبرز الله تعالى لأهل الجنة أيضا من وراء الحجب.

فالخلاصة أنه لن تبقى الحالات الروحانية عندئذ على ما هي عليه اليوم من الخفاء، وسوف تظهر في أشكال مجسمة.

المعرفة الثالثة

والمعرفة الثالثة هي أن سلسلة الارتقاء في عالم المعاد لا نهاية لها. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٩).

فقوله تعالى عن الذين آمنوا إنهم لن ينفكّوا يدْعون ربهم أن يتمّ لهم نورهم.. إنما هو إشارة إلى ترقيات غير متناهية، بمعنى أنهم كلما استكملوا درجةً من درجات النور.. تراءت لهم درجةٌ أخرى منه، فيرون كمالهم الحاصل نقصًا بالنسبة إلى الكمال التالي.. فيلتمسون من الله إحرازَ تلك الدرجة، فإذا أحرزوها.. تراءت لهم درجة ثالثة منه، فيعتبرون الكمالات الأولى ناقصة، ويطمعون في هذه الأخيرة. إن هذا النــــزوع المستمر للرقي يعبر عنه قولهم: "أَتْمِمْ".

إذن فهكذا سوف يستمرّون في حلقات من سلسلة غير متناهية من الارتقاء، ولن يصيبهم الانحطاط أبدا، كما أنهم لن يُخرَجوا من جنتهم، بل سيتقدمون يوما بعد يوم ولا يتراجعون.

وعند قولهم "واغفِرْ لنا" ينشأ سؤال: ألم يغفرِ الله لهم وقد دخلوا الجنة؟ وما الحاجة إلى الاستغفار ما داموا قد غُفر لهم؟

والجواب أن المغفرة معناها في الأصل سَتر الحالات الناقصة غير الملائمة.. وتغطيتها. فالمراد أن أصحاب الجنة سيطمعون أن ينالوا الكمال التام، وأن يغرقوا في النور كليةً. فدائمًا ما يجدون حالتهم الأُولى ناقصةً عند رؤيتهم الدرجة التالية من الكمال، فيودون تغطية حالتهم الأولى. ثم إذا رأوا درجة الكمال الثالثة تمنوا تغطية حالتهم الثانية.. أي أن تُستر حالتهم الناقصة تلك وتُخفى. وهكذا سوف يظل أصحاب الجنة يتمنون المغفرة غير المتناهية بعد كل مرحلة.

إن كلمة الاستغفار أو الغفران هي نفس الكلمة التي يطعن بها بعض الجاهلين في نبينا ﷺ. ولعلكم - أيها المستمعون الكرام - قد أدركتم مما سلف أن الرغبة في الاستغفار إنما هي مفخرة للإنسان. فمن كان مولودًا من بطن امرأة.. ومع ذلك لا يتخذ الاستغفارَ دَيْدنًا له في كل حال.. فهو دودة وليس إنسانا، وأعمى وليس بصيرا، ونجسٌ وليس طيبًا.

فخلاصة القول إن الجنة والجحيم، بحسب تعليم القرآن الكريم، ليستا شيئًا ماديا جديدًا يأتي من الخارج.. وإنما هما في الحقيقة آثار الحياة البشرية وظلالُها. إنه لحق أن كل واحدة منهما ستتمثل عندئذ مجسمة.. ولكنها لا تكون في الحقيقة إلا آثار الحالات الروحانية وأظلالها. إننا لا نؤمن بجنة هي عبارة عن أشجار مغروسة غرسًا

ظاهريا، ولا نؤمن بجحيم فيها أحجار من كبريت مادي، بل الجنة والجحيم - طبقًا للعقيدة الإسلامية - إنما هما انعكاسات للأعمال التي يعملها الإنسان في الحياة الدنيا.

السؤال الثالث

الغاية من خلق الإنسان والوسائل المؤدية إليها

إن الناس مع اختلاف طبائعهم قد عينوا لحياتهم - بسبب قلة فهمهم أو ضعف همتهم - أهدافا متباينة.. لا تتجاوز الجريَ وراء الأغراض الدنيوية والأماني المادية. ولكن الغاية التي ذكرها الله في كتابه العزيز هي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧).. أي ليعرفوني ويعبدوني. فبِناء على هذه الآية كان المقصد الحقيقي للحياة البشرية عبادةَ الله ومعرفته، وأن يصير الإنسان لله وحده. ومن الواضح أن الإنسان لا يملك خيارا لكي يقرر غايةَ حياته من تلقاء نفسه، لأنه لا يأتي إلى هذا العالم بإرادته.. ولا هو تاركها برضاه، فما هو إلا مخلوق. فالذي خلقه وخصه من بين جميع الحيوانات بأفضل الملكات.. هو الذي قد قدر لحياته غاية معينة. وسواء فهمها الإنسان أم لم يفهمها، فإنه مما لا شك فيه أن غاية خلق الإنسان إنما هي عبادة الله، ومعرفته، والفناء فيه تعالى.. كما يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ

الإسْلامُ﴾ (آل عمران: ٢٠)، وقال: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣١)

.. أي أن الدين الذي يكفل المعرفة الربانية الصحيحة وعبادة الله على أحسن وجه.. إنما هو الإسلام. وقد أودِع الإسلامُ فطرةَ الإنسان.

لقد خلق الله الإنسان على الإسلام، ومن أجل الإسلام.. بمعنى أنه قد أراد أن ينهمك الإنسان بجميع قواه في عبادة ربه وطاعته ومحبته، ولأجل ذلك قد وهب له ذلك القادر الكريم جميعَ هذه القوى بصورة تلائم مقتضيات الإسلام.

بحثٌ فطري عن الله تعالى

إن شرح الآيات المذكورة طويل.. وقد ذكرنا شيئا منه فيما سبق في الجزء الثالث من إجابة السؤال الأول؛ غير أننا نريد أن نبين هنا باختصار أن كل ما أُوتيه الإنسان من أعضاء وملكات، ظاهرًا وباطنًا، إنما الهدف الحقيقي منه هو معرفة الله وعبادته ومحبته. لذلك نجد أن الإنسان -مهما انشغل بشتى الملذات المادية- إلا أنه لا يجد سعادته الحقيقية إلا في الله تعالى. فمهما كان غنيًا ثريًّا، أو صاحب منصب رفيع، أو تاجرًا كبيرا، أو ملِكًا عظيمًا، أو فيلسوفا شهيرا..

فإنه لا محالة يغادر كل هذه المشاغل الدنيوية بحسرات كبيرة في آخر المطاف. ولا يزال قلبه يؤنبه دوما على انهماكه في لهو الدنيا وملذّاتها، ولا يوافقه ضميره أبدا على ما يأتي من صنوف المكر والخداع والمحرمات.

ويمكن للعاقل أن يفهم هذا الأمر أيضا بطريق آخر.. وهو أن غاية خلق كل مخلوق هي القيام بأفضل فعل يستطيع القيام به بأقصى جهده، ثم تعجز قواه عن أن تزيد عليه. خذوا الثور مثلا.. فأن أقصى ما يقدر على عمله هو الحراثة والسقاية والحمل، ولا نعلم أكثر من هذه الفوائد من قواه. لذلك فهذه الأعمال الثلاثة هي غاية خلقه، ولا توجد فيه غير هذه القوى.

وأما إذا بحثنا في ملكات الإنسان لنعرف أعظم ملكة فيه.. تأكد لنا أنها البحثُ الدائم عن الإله العلي.. حتى أنه ليود أن يذوب في محبة الله وينمحي.. فلا يبقى له من نفسه شيء، بل يصير كله لله تعالى. إن الحيوانات تشارك الإنسان إلى حد كبير في الأكل والنوم وغيرهما من العادات الطبْعية، بل إن بعض الحيوانات تسبق الإنسان كثيرا في مجال الصنعة البديعة، فها هي النحل تصنع من رحيق الزهر عسلا نفيسًا.. لم ينجح الإنسان في صنع مثله حتى اليوم. يتبيَّنُ من

ذلك أن ذروة كمال الإنسان هو الوصال بالله تعالى، لذلك فإن الغاية الحقيقية لحياته أن تظل نافذة قلبه مفتوحة تجاه الله.

وسائل تحقيق الغاية من الحياة

فإذا قيل: كيف يحقِّقُ الإنسان هذه الغاية، وما هي الوسائل لتحقيقها؟

الوسيلة الأولى

فاعلموا أن الوسيلة الأولى، وهي شرط أساسي لنيل هذه الغاية، هي العرفان الصحيح بالله والإيمان بالإله الحق. ذلك أن الإنسان إذا أخطأ في اتخاذ أول خطوة.. كأن اعتبر مثلا الطيرَ أو البهائم أو العناصر الكونية، أو ابنَ الإنسان إلهًا.. فكيف يُرجى منه سلوكُ الصراط المستقيم في خطواته التالية؟ إن الإله الحق يعين الذين يبحثون عنه هو، وأما الميت فأنى له أن يساعد الميتَ؟ ولقد ضرب الله في هذا المعنى مثالا رائعا إذ قال:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ﴾ (الرعد: ١٥).. أي أن الإله القدير على

كل شيء هو الأحق بأن يدعوه الإنسان. أما الذين يعبدهم الناس من دون الله فهم لا يستطيعون جوابا لهم، ومثالهم مع آلهتهم كمن هو باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فمه.. فهل يدخل الماء هكذا إلى فمه؟ كلا. فالذين يجهلون الإله الحق أدعيتهم كلها باطلة.

الوسيلة الثانية

والوسيلة الثانية لتحقيق غاية الحياة هي الوقوف على حسن الله وجماله المتصف بهما لكونه الكمال التام. فإن الحسْن بطبيعته شيء تنجذب إليه القلوب تلقائيًا، ويحب الإنسان بطبعه رؤيتَه. وحُسن الله هو وحدانيته وعظمته وجلاله وصفاته.. كما يقول في القرآن الكريم:

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص).. أي أن الله في ذاته وصفاته وجلاله أحد متفرد.. لا شريك له في ذلك أصلا. الجميع محتاجون إليه. كل ذرة من الكون تستمد منه الحياة. إنه تعالى مبدأ الفيض للكل، أما هو فلا ينال أي فيضٍ من أحد. إنه ليس بولد لأحد، ولا بوالدٍ لأحد. وكيف يكون كذلك.. وليس لأحدٍ ذاتٌ مثل ذاته؟ لقد عرض القرآن الكمالَ الإلهي والعظَمة الإلهية مرة بعد أخرى لتنبيه

الناس إلى أن مِثل هذا الإله يكون بغيَة القلوب، لا مَنْ هو ميت وضعيف وقليل الرحمة والقدرة.

الوسيلة الثالثة

وأما الوسيلة الثالثة.. للوصول إلى المقصود الحقيقي، وهي فوق السابقة.. فهي الاطلاع على إحسان الله تعالى، ذلك لأن للحب دافعين فقط: الحُسن والإحسان. وقد تضمنت سورةُ الفاتحة خلاصة صفات الله التي تُظهر إحسانه، كما يقول ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَب الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وواضح أن الإحسان الكامل إنما يتحقق إذا كان الله يخلق عباده من العدم المحض، ثم لا يزال يشملهم بربوبيته على الدوام، وكان هو نفسه عمادًا وسندًا لكل شيء، ثم كانت رحمته بكل أنواعها قد ظهرت لهم، وكان إحسانه وفضله عليهم عظيما بحيث لا يمكن لأحد تقديره.

ولقد عدد الله علينا في القرآن المجيد هذه الإحسانات مرة بعد أخرى.. كما قال في موضع آخر: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٥).

الوسيلة الرابعة

والوسيلة الرابعة التي جعلها الله لنيل المقصود الحقيقي هي الدعاء.. كما يقول ﷻ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦١). وقد رغب الله الإنسانَ في الدعاء مرة بعد أخرى لينال هذه الغاية بقوة الله لا بقوته هو فقط.

الوسيلة الخامسة

والوسيلة الخامسة التي وضعها الله للفوز بالمرام الأصلي هي المجاهدة.. أي أن نطلب الله بإنفاق أموالنا في سبيله، وتسخير قوانا من أجله، والتضحية بنفوسنا وبذل عقولنا في سبيله، كما يقول ﷻ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (التوبة: ٤١)، ويقول تعالى: ﴿وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٤)، ويقول تعالى ﴿وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٧٠).. أي ابذلوا في سبيل الله أموالكم وأنفسكم.. بجميع ما فيها من قوى وملكات، وأنفقوا في سبيله كل ما أعطاكم من عقل وعلم وفهم ومهارة وغيرها. والذين يسعون بكل طريق في سبيلنا فإننا لا بد أن نُرِيَهم سبلنا.

الوسيلة السادسة

والوسيلة السادسة التي بينها الله للظفر بالمقصود الحقيقي هي الاستقامة؛ وهي ألا يصيب السالك في هذا الطريق تعبٌ ولا وهن ولا ملل ولا خوف من ابتلاء.. كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ﴾ (فُصّلت:٣١-٣٢).. أي أن الذين قالوا ربنا الله وتخلوا عن الآلهة الباطلة، ثم استقاموا، أي ثبتوا في أنواع الاختبارات وصنوف البلايا.. تتنــزل عليهم الملائكة قائلين: لا تخافوا ولا تحزنوا، بل ابتهجوا وافرحوا لأنكم أصبحتم ورثةَ تلك السعادة التي وُعدتم بها. إننا أولياؤكم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضا. ولقد نبه بهذه الكلمات إلى أن الاستقامة تُكسب رضى الله تعالى.

ما هي الاستقامة الحقيقية

الحق أن الاستقامة فوق الكرامة. وكمال الاستقامة أن نرى البلايا قد حاصرتنا من الجهات الأربع، وأن نجد أنفسنا وعِرضنا وشرفنا عرضةً للخطر في سبيل الله، ولا نجد سبيلا للسلوان.. حتى

أن الله أيضا يُمسك عنا كشوفه ورؤاه وإلهامه على سبيل الاختبار، ويتركنا في أخطار مهولة.. ورغم كل ذلك لا نُبدي فشلا، ولا نتقهقر كالجبناء، ولا نُخِلّ في وفائنا، ولا نقصر في صدقنا وثباتنا، بل نفرح على الذلة، ونرضى بالموت، ولا ننتظر صديقا يكون لنا عونا على الثبات، ولا نطلب من الله بشارات بحجة أن الموقف خطير.. وإنما ننتصب قياما رغم الضعف والخذلان وفقدان سبل السلوان، ونضع أمامه رقابنا دون تفكير في العواقب، ولا نتحرك أمام القضاء والقدر، ولا نبدي أبدا أي قلق أو جزع أو فزع، إلى أن يستوفي الاختبارُ أجله.

هذه هي الاستقامة التي يلاقي بها الإنسان ربه، وهي نفس العطر الذي لا يزال عبيره يفوح حتى اليوم من تربة الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء، وإليها أشار الله في الدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وإليها تشير الآية: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٢٧).. أي يا رب أنـــزل على قلوبنا في وقت المصيبة سكينةً توفقنا للصبر، وقدر لنا الموت على الإسلام.

واعلموا أن الله تعالى يُنـــزل على قلوب عباده المحبوبين في وقت الآلام والمصائب نورًا يتقوون به، فيقاومون النوازل والبلايا بكل

اطمئنان، ويقبلون -من حلاوة الإيمان- تلك السلاسل التي تُصَفّد بها أرجلُهم في سبيله تعالى. إن الإنسان الرباني عندما تحِلّ به البلايا وتظهر له آثار الهلاك.. فإنه لا ينازع ربه الكريم هكذا عبثًا سائلا النجاة منها، لأن الإلحاح في الدعاء بالعافية حينئذ يكون بمنـــزلة حرب على الله تعالى، ويصبح منافيا للتوافق التام مع مشيئة الله. وإنما المحب الصادق مَن يزداد تقدمًا كلما نـــزل البلاء، ولا يقيم حينئذ لنفسه وزنا، ويودع حُب الذات ليتبع كليةً مشيئةَ مولاه ابتغاءً لمرضاته. وفي حقه هو يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة:٢٠٨).. أي أن محبوب الله تعالى يقدم نفسه فداء في سبيله تعالى ويشري بها مرضاته تعالى. وأمثاله هم الذين يصبحون موردا لرحمة خاصة من الله. هذه إذن هي روح الاستقامة التي بها يلاقي الإنسان ربه. فليفهَمْها من شاء.

الوسيلة السابعة

والوسيلة السابعة لإحراز المقصود الحقيقي هي مصاحبة الصالحين ومشاهدة أسوتهم الحسنة. واعلموا أن من دواعي بعث الأنبياء أيضا أن الإنسان بطبيعته يحتاج إلى أسوة كاملة، لأن الأسوة الكاملة تزيد

الإنسان شوقًا وترفع همته. ومن يفقد القدوة يتكاسل ويضل الطريق. وإلى ذلك يشير الله جل شأنه في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩)، وقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.. أي عليكم بصحبة الصادقين واتباع سبيل الذين نـــزل عليهم فضل الله من قبلكم.

الوسيلة الثامنة

والوسيلة الثامنة لذلك هي ما ينعِمُ به الله تعالى من كشوف وإلهامات ورؤى صالحة. إن السلوك إلى الله صراطٌ دقيق جد دقيق، ومحفوفٌ بأنواع المصائب والآلام، ويمكن أن يتيه الإنسان في هذا الطريق الذي لم ير مجاهله من قبل، أو يأخذه اليأس فيُحجم عن المضي قدُمًا. لذلك اقتضت الرحمة الإلهية أن تساير الإنسان في هذه الرحلة باستمرار.. تؤنسه وتواسيه، وترفع همته، وتزيد في شوقه. فلم تزل سُنة الله مع السالكين لهذا السبيل أن يُطمئنهم من وقت لآخر بكلامه ووحيه، ويخبرهم أنه معهم؛ فيتقوون، ويقطعون هذه المسيرة بكل حماس ونشاط. ويقول الله في هذا الشأن: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ﴾ (يونس: ٦٥)

وهناك وسائل أخرى مذكورة في القرآن الكريم.. ولكن للأسف لا نستطيع بيانها جميعًا خشيةَ الإطالة.

السؤال الرابع

أثر الأعمال الصالحة على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة

الجواب عن هذا السؤال هو ما قد ذكرناه سابقًا، أي أن التأثير الحقيقي للشريعة الحقة الكاملة في قلب الإنسان في هذه الحياة هو تحويله من الحالة الهمجيّة إلى إنسان، ومن إنسان إلى إنسان أخلاقيّ، ثم من إنسان أخلاقيّ إلى إنسان ربانيّ.

ومن مظاهر تأثير الشريعة في هذه الحياة أن الإنسان إذا اتبع الشريعة الحقة.. بدأ يعرف حقوق بني جنسه حسب مراتبهم، ويستعمل ملكاتِ العدل والإحسان والرحمة في محلها، ويُشرك الجميعَ بحسب درجاتهم فيما مَنّ الله عليه مِن علم ومعرفة ومال ورفاهية. فيرسل - كالشمس - ضوءَه كله على جميع بني نوعه؛ وكالبدر.. يستمد من نور الله تعالى ثم يفيض بنوره على الآخرين؛ وكالنهار.. يتجلى فيُرِي الناسَ سُبلَ الهدى؛ وكالليل.. يستر عيوب الضعفاء، ويسبغ الراحة على المتعَبين المنهَكين؛ وكالسماء.. يؤوي

كل ذي حاجة بِظِله، ويمطر عليهم بفيوضه في مواسمها؛ وكالأرض.. يصير من كمال التواضع فراشًا لراحة كل إنسان، ويضم الجميع في أكناف رحمته، ويقدم لهم أنواع الثمار الروحانية.

هذا هو أثر الشريعة الكاملة؛ فالمتمسك بها يبلغ الذروة في تأدية حقوق الله وحقوق عباده. إنه يتفانى في الله تعالى، ويصبح خادمًا صادقًا لخلقه.

هذا فيما يتعلق بتأثير العمل بالشريعة خلال هذه الحياة. وأما فيما يتعلق بتأثيرها بعد هذه الحياة.. فإن الوصال الروحاني بالله سوف يتحول له يومئذ إلى رؤية إلهية بينة؛ وخدمة الخلق التي قام بها محضًا لوجه الله تعالى، والتي كان دافعها حُب الإيمان والأعمال الصالحة.. سوف تتمثل له يومئذ أشجارًا وأنهارا من الجنة. يقول الله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلّاهَا * وَالليْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (سورة الشمس).

..أي أُقْسِم بالشمس وضيائها، وبالقمر حين يتبعها.. أي يستمدّ النورَ منها، ويوصله إلى الآخرين كما هي توصله. وأُقسم بالنهار حين يُري صفاءَ الشمس، ويوضح الطُرق. وأُقسم بالليل إذا أظلم وستر الجميعَ في طيات الظلمة. وأُقسم بالسماء وبالحكمة التي هي وراء بنائها هكذا، وأُقسم بالأرض وبالعلة الكامنة وراء فرشها بهذا الشكل، وأُقسم بالنفس وبكمالها الذي جَعَلَها تتساوى مع كل هذه الكائنات.. بمعنى أن الكمالات التي توجد متفرقة في كل كائن من هذه الكائنات توجد كلها في نفس الإنسان الكامل وحده، وأن كل الخدمات التي يسديها كل واحد من هذه الكائنات على حدة لبني البشر، فإن الإنسان الكامل يقوم بها وحده، كما بيَّنتُ آنفًا.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا﴾ .. أي قد فاز ونجا من الموت مَنْ طهر النفسَ هكذا، وصار خادما لخلق الله بالتفاني في الله.. شأنَ الشمس والقمر والأرض وغيرها.

وتذكروا أن المراد بالحياة هنا هو الحياة الأبدية التي ينالها الإنسان الكامل في الآخرة. وفي هذا إشارة إلى أن ثمرة الشريعة العملية في عالم الآخرة هي الحياة الخالدة.. التي تبقى مستمرةً على الدوام بسبب غذاء الرؤية الإلهية.

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.... أي قد هلك وقنط من الحياة من لطخ نفسه بالوحل، و لم يحرز الكمالات التي زُود بملكات لإحرازها، ورجع بعد قضاء حياة نجسة.

ثم ضرب الله مثالَ قصة ثمود ليبين أن قصتهم مشابهة لقصة هذا الشقي. فكـــما أنهم عقروا الناقة التي كانت تسمى "ناقة الله" ومنعوها الشربَ من عين مائهم، كذلك قد طعن هذا الشقي ناقة الله في الحقيقة وحرمها من مَعِينها. وفي هذا إشارة إلى أن النفس البشرية هي ناقة الله التي يمتطيها الإنسان.. بمعنى أن قلب الإنسان هو محَل للتجليات الإلهية، وأن ماء هذه الناقة الذي تحيا به هو محبة الله ومعرفته.

ثم قال: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.. أي أن أهل ثمود لما عقروا الناقة وصدوها عن سُقياها.. نـــزل الله عليهم العذاب، ولم يكترث الله أبدا بمصير أيتامهم وأراملهم بعد هلاك القوم. كذلك الإنسان الذي يعقر ناقة نفسه، ولا يوصلها إلى كمالها، ويمنعها من مائها فسوف يدمر ويهلك.

الحكمة من قَسَم الله بأشياء مختلفة

وليكن معلوما هنا أن في قَسم الله بالشمس والقمر وغيرهما حكمةً عميقة للغاية، يؤدي الجهلُ بها عند معظم معارضينا إلى إثارة الاعتراض قائلين: ما حاجة الله إلى القسم، ولماذا أقسم بالمخلوقات؟ وبما أن عقولهم أرضية، وليست سماوية، فلا يدركون المعارف الحقّة.

ليكنْ واضحًا أن غاية الحالف من القَسم إنما هي أنه يريد بذلك تقديمَ شهادة على دعواه. إذا لم يكن ثمة شهيد على ما يدّعي به فإنه يقدّم الله تعالى شاهدًا على ما يقول، لأن الله عالم الغيب، ولأنه سبحانه وتعالى الشهيد الأول في كل قضية. وكأن الحالف بالله يعني بهذه الشهادة أنه لو سكت الله عني بعد هذا الحلف، ولم يُنزل علي العذاب.. فكأنه تعالى قد ختم على قولي بالتصديق كما يوثق الشهداء قول قائل. وبناء على هذا.. لا يحق بتاتًا للمخلوق أن يحلف بمخلوق آخر، فإن المخلوق لا يعلم الغيب، كما أنه ليس بقادر على معاقبة مَن يشهد شهادة زور.

غير أن قَسَم الله المذكور في الآيات السالفة ليس كقسم المخلوق، وإنما سُنة الله في ذلك أن أفعاله قِسمين: أفعال واضحة محسوسة يدركها الجميع بدون اختلاف، وأفعال نظرية يخطئ أهل الدنيا فيها

ويختلفون، فأراد الله تعالى أن يؤكد للناس أفعاله النظرية بشهادة أفعاله المحسوسة البدهية.

المشابهة بين العالَم الصغير والكبير

والواضح أن كلا من الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض مزود فعلاً بتلك الخواص التي ذكرها تعالى آنفًا؛ ولكن وجود مثل هذه الخواص في النفس البشرية أمرٌ لا يعرفه كل أحد، لذلك قدّم الله أفعالَه المشهودة شهادةً لتبيان أفعاله النظرية. وكأنه تعالى يقول: إن كنتم في ريب من وجود الخواص المذكورة في النفوس البشرية، فتدبروا في الشمس والقمر وغيرهما وسوف تجدونها فيها بداهة.

ثم إنكم تعلمون أن الإنسان عالَم صغير.. رُسمت في نفسه خارطة العالم الكبير كله بالإجمال. فما دام من الثابت المتحقق أن هذه الأجرام الضخمة في العالم الكبير مزودةٌ بتلك الخواص، وتنفع المخلوقات كما ذُكر، فكيف يمكن للإنسان أن يكون خاليًا ومحرومًا منها.. مع أنه يسمَّى أعظمَ المخلوقات درجة؟ كلا، بل إن فيه أيضًا، كضياء الشمس، نورًا من العلم والعقل يستطيع أن يضيء به العالم كله. وأنه - مثل القمر - يتلقى من الحضرة العُليا نورَ الكشف

والإلهام والوحي.. ويوصله إلى الذين لم يستوفوا بعد الكمالَ الإنساني. فكيف إذن يسوغ القول بأن النبوة باطلة، وأن جميع الرسالات والشرائع والكتب إنما هي حصيلة مكر الإنسان وأنانيته؟ تشاهدون كيف تستبين كل سبيل بطلوع النهار، ويظهر كل ارتفاع وانخفاض جليا.. كذلك فالإنسان الكامل.. هو نهار من الضوء الروحاني، وعند إشراقه تستبين كل سبيل، ويبين هو للناس أين الصراط المستقيم.. لأنه هو النهار المنير للحق والصدق.

وكذلك تشاهدون كيف يؤوي الليل المتعَبين المرهَقين، وكيف يجد العمال المنهكون في أحضانه راحةَ النوم بكل سرور، ويستريحون من المشاق، ثم إن الليل يهيئ السترَ للجميع، كذلك فإن عباد الله الكُمّل يأتون لراحة أهل الدنيا. إن الذين يتلقون وحْيًا وإلهاما من الله يخلصون كل العاقلين من إرهاق النفس، وبفضلهم تنحل المسائل الصعبة بكل يُسر. كما أن وحي الله تعالى يهيئ - مِثل الليل - سترًا للعقل الإنساني.. فلا يَدَع أخطاءه الخبيثة تنكشف للدنيا.. لأن أرباب العقل متى تلقوْا نورَ الوحي أصلحوا أخطاءهم بأنفسهم، واتقوا الفضيحة بفضل برَكة الوحي الإلهي القدسي. لذلك لن تجدوا أحدًا من فلاسفة الإسلام قرب للأصنام دجاجًا كما فعل "أفلاطون" الفيلسوف. كان أفلاطون محرومًا من نور الوحي لذلك انخدع،

وبدرت منه تلك الحماقُة البشعة.. رغم كونه فيلسوفا كبيرا. ولكن حكماء الإسلام عُصِموا من مثل هذه الأعمال النجسة الحمقاء.. بفضل اقتدائهم بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ. فانظروا كيف ثبت أن الوحي يزود العقلاء بستر كمثل الليل.

ثم إنكم تعلمون أن عباد الله الكاملين يُؤوون في ظلالهم -كالسماء- كلَّ منهوك مرهق. إن أنبياء الله القدوس خاصة، ومَن تشرفوا بوحيه عامة، يمطرون -كالسماء- أمطار فيوضهم وبركاتهم. كما أنهم يجمعون في أنفسهم خواص الأرض أيضًا، فتُنبت نفوسهم الزكية أنواعًا من أشجار العلوم العالية التي ينتفع الناس من ظلالها وثمارها وأزهارها.

فهذا القانون الطبيعي البادي لأنظارنا بجلاء ليقف شاهدا على نفس القانون الخفي الذي قدّم الله شهادته في هذه الآيات في شكل قَسمينِ. فيا له مِن كلام حكيم ورد في القرآن الكريم، وخرج من فم ذلك الإنسان الذي كان أميًّا من البادية! لو كان هذا الكلام من عند غير الله لما تقاصرت عقول العامة ولا عجزت أفهامُ مَن يُسمون أنفسهم مثقفين عن إدراك هذه المعرفة الدقيقة.. حتى اندفعوا للطعن فيه. وإن من عادة المرء أنه إذا فشل بكل الطرق في فهم حكمةٍ بعقله القاصر، اتخذها موضع الطعن، وطعنُه هذا يشكّل دليلاً على

أن تلك الكلمة الحكيمة أسمى وأعلى من إدراك العقول العادية، فلذلك اعترض عليها العقلاء مع كونهم من أهل الذكاء والدهاء. أما وقد انكشف الآن هذا السر المكتوم.. فلن يطعن فيه أي لبيب بعد ذلك.. بل سيجد فيه متعة.

مثال آخر

ولقد أقسم الله قسَمًا كهذا في موضع آخر من القرآن الكريم مستشهدًا بظواهر الطبيعة على سُنته المستمرة في الوحي وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق: ١٢-١٥).. أي أُقسم بالسماء التي ينـــزل منها المطر، وأُقسم بالأرض التي تُخرِج أنواع النبات نتيجة المطر.. إن هذا القرآن كلام الله ووحيه.. وإنه يحكم بين الحق والباطل، وما هو بعبث لا نفع فيه، أي لم يأت في غير أوانه، بل هو كمطرٍ ينـــزل في موسمه.

فالله تعالى قد قدّم هنا قانونَه الطبيعي الجليّ كلَّ الجلاء شهادةً على صدق القرآن الكريم الذي هو كلامه. بمعنى أنه من الملاحَظ المشاهَد دائما في القانون الطبْعي أن السماء تمطر عند الضرورة، وأن خضرة الأرض متوقفة على نزول مطر السماء، فلو أمسكت السماء مطرها

لنضبت الآبار شيئًا فشيئا. فثبت أن وجود الماء في الأرض موقوف في الواقع على غيث السماء، لذلك نجد أن مياه الآبار الأرضية ترتفع كلما أمطرت السماء. لماذا ترتفع يا ترى؟ إنما سبب ذلك أن ماء السماء هو الذي يرفع مستوى ماء الأرض كأنه يجذبه إلى أعلى. هذه العلاقة نفسها موجودة بين الوحي الرباني والعقل البشري.

العلاقة بين الوحي والعقل

إن وحي الله هو الماء السماوي.. والعقل هو الماء الأرضي، وهذا الماء يربو ويزداد دائما بالماء السماوي.. أي الوحي. وحينما ينقطع الماء السماوي يجف الماءُ الأرضي أيضا بالتدريج. ألا يكفيكم برهانًا على ذلك أنه عندما يمضي زمن طويل ولا يُبعَث في الأرض مَن يتلقى الوحيَ فإن عقول العقلاء تفسد وتخبث جدا.. تمامًا كما تجف مياه الأرض وتفسد؟ ولكي تفهموا ما أقول يكفيكم أن تُلقوا نظرةً عابرة على ما كانت عليه الأحوال في العالم كلِّه في العصر الذي سبق بعثةَ نبينا محمد ﷺ.. إذ كانت قد مضت عندئذ ستة قرون على بعث المسيح عليه السلام؛ ولم يُبعث في تلك الفترة أحد من الرسل، ولذلك كانت أحوال العالم بأسره سيئةً. إن تاريخ الأمم كلها يدل

بصراحة على أن الأفكار الباطلة كانت قد عمت الآفاقَ جميعها قبل ظهور الرسول ﷺ.

لماذا حدث كل ذلك وما السبب وراءه يا تُرى؟ إنما سببه أن الوحي الرباني كان منقطعا منذ زمن مديد، وكانت مملكة السماء في يد العقل الأجوف وحده. وهل هناك أحد يجهل ما أدى إليه العقل البشري الناقص من مفاسد وبلايا؟ فانظروا كيف جفت تماما مياه العقول كلها عندما لم يمطر ماء الوحي لمدة طويلة!

ففي هذه الأقسام القرآنية يعرض الله هذا القانون الطبيعي نفسه.. ويطلب منا أن نُجيل النظر لنرى: أليس من النواميس الإلهية المحكمة الدائمة أنه جعل خضرةَ الأرض متوقِّفة تماما على ماء السماء؟ إذن فهذه السنة الإلهية الجلية شاهدةٌ على السنة الإلهية الخفية.. سُنةِ الوحي والإلهام. فيجب إذن أن تستفيدوا من شهادة هذا الشاهد، وألا تتخذوا العقل وحده هاديًا.. فإنه ماء لا يمكنه البقاء بدون ماء السماءِ. فكما أنه من خواص الماءِ السماوي أنه يرفع مَاءِ الآبار كلها بحسب القانون الطبيعي.. سواء وقع هذا الماء فيها مباشرة أم لم يقع، كذلك يحدث حين يظهر في الأرض نبي من أنبياء الله.. فسواء اتبعه عاقل أم لم يتبعه.. فإن العقول في عصره تزداد من تلقاء نفسها صقلاً وجلاءً لم يُعهد فيها من قبل. يشرع الناس تلقائيا في البحث

عن الحق، وتنبعث من الغيب حركةٌ في قواهم الفكرية. وكل هذا الرقي العقلي والحماس القلبي إنما يحدثان بسبب القدوم الميمون لذلك الإنسان المحظوظ بالوحي.. فقد رُفعت به مياه الأرض على وجه الخصوص. فإذا شاهدتم أن كل امرئ قد هب يهتم بالأمور الدينية والبحث فيها، وأن المياه الأرضية في فوران.. فانهضوا وانتبهوا، واعلموا يقينًا أن المطر قد نـــزل من السماء غزيرا، وأن قلبًا قد صار مهبطًا لوابل الوحي.

السؤال الخامس

وسائل العلم.. أي العرفان الإلهي

ليكن واضحا أن المجال لا يسع قطعًا أن نذكر الآن كل ما قاله القرآن المجيد مفصلا في هذا الموضوع.. على أنني سوف أحاول الإلمامَ به على سبيل المثال.

اعلموا أن مدارج العلم بحسب القرآن الكريم ثلاثة كما ذكرناها فيما سبق عند تفسير سورة التكاثر، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وقد قلنا هنالك أن علم اليقين هو معرفة شيء بواسطة شيء آخر لا مباشرة.. كما نستدل بالدخان المتصاعد على وجود النار. لم نر النار ولكننا رأينا الدخان ومن ثم عرفنا باليقين أن هناك نارًا. وهذه الدرجة من المعرفة تُسمى علمَ اليقين. أما إذا رأينا النار نفسها.. فهذه الدرجة تسمى عين اليقين حسب مصطلح القرآن الحكيم. ثم إذا اصطلينا بالنار صار علمُنا هذا في مرتبة حق اليقين وفقًا للتعبير القرآني. ولا حاجة لإعادة تفسير سورة التكاثر هنا، إذ يستطيع القرّاء مراجعة هذا التفسير في مكانه. واعلموا أن القسم الأول من العلم.. أي علم اليقين.. وسيلته العقل والنقل. يقول الله

حكاية عن أهل الجحيم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الْمُلك: ١١).. أي سيقول أهل النار: لو كنا عقلاء، واختبرنا أمور الدين والعقائد بوسائل عقلية، أو أصغينا إلى أقوال العقلاء والباحثين الكاملين لما كنا اليوم في الجحيم.

هذه الآية تتفق في المعنى مع آية أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٧).. أي أن الله تعالى لا يُكره النفس البشرية على قبول ما ليس في سعتها العِلمية، ولا يَعرض على الإنسان إلا العقائد التي في وسعه أن يفهمها.. حتى لا تكون أوامره من قبيل التكليف بما لا يطاق.

وتشير كلتا الآيتين أيضا إلى أن بِوُسْع الإنسان أن يتلقى علم اليقين بواسطة سمعه أيضا. فعلى سبيل المثال، نحن لم نـــزُر لندن، وإنما سمعنا من زوارها بأنها مدينة من المدن، ومع ذلك هل نستطيع أن نشك في وجودها ظانين أن هؤلاء جميعا ربما يكذبون؟ وإننا لم ندرك زمن السلطان "عالمغير" ولم نر صورته، ومع ذلك هل انتابنا الشك مرةً في كون "عالمغير" أحد السلاطين "الجغتائين" المغول؟ فكيف حصل لنا إذن هذا اليقين؟ الجواب: بطريق السماع المتواتر فقط. فلا مراء في أن السماع أيضا يوصل الإنسان إلى مرتبة علم اليقين.

إن صحف الأنبياء كذلك وسيلة من وسائل العلم السماعي.. بشرط أن لا يكون هناك خلل في سلسلة روايتها. وأما إذا كان هناك كتاب يدعي أنه سماوي.. وله خمسون أو ستون نسخة مَثلا يناقض بعضها بعضًا، ثم اعتقد فريق من الناس أن اثنتين أو أربعًا من هذه النسخ صحيحة وما عداها موضوعة مزورة، فمثل هذا الاعتقاد الذي لم يُبنَ على البحث الكامل سوف يعتبر عند الباحث عبثًا لا قيمة له، وتكون النتيجة أن تلك الأسفار تعتبر رديئة غيرَ موثوق بها لما تنطوي عليه من التناقض، ولن يجوز مطلقا اعتبارُ مثل هذه الأقوال المتناقضة وسيلةً للعلم.. لأن تعريف العلم إنما هو ما يُكسب المعرفة اليقينية، ووجود المعرفة اليقينية في مجموعة من المتناقضات مستحيل.

مزية القرآن الكريم

ولنتذكر هنا أن بيان القرآن المجيد لا يقتصر على السماع فقط، بل إن فيه براهينَ عقلية عظيمة، وليس بين كل ما عرضه من عقائد ومبادئ شيءٌ فيه جبرٌ وتحكمٌ، بل إن جميع مبادئه وقواعده -كما ذكر الله فيه بنفسه- منقوشة في فطرة الإنسان. وقد سمى القرآن "الذكرَ" كما في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ (الأنبياء: ٥١)..

أي هذا القرآن ذا البركة لم يأت بأمر مُحدَث، وإنما يُذكر الإنسانَ بكل ما هو مودَعٌ في فطرته، وما هو مرسوم في صحيفة الطبيعة.

ويقول في موضع آخر: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).. أي أن هذا الدين لا يُكرِه أحدًا على قبول شيء منه، بل يبين حقيقة كل أمرٍ مع أدلته.

وإلى جانب ذلك فإن في القرآن خاصيةً روحانية لتنوير القلوب.. كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٨).. أي بفضل خاصيته هذه ينـــزع من النفوس أسقامها كلها.

لذلك فإن القرآن لا يمكن أن يسمى كتابا نقليا.. أي الذي يعتمد على النقل فقط، بل إنه يصطحب براهينَ عقلية من أعلى درجة، وفيه نور ساطع وضاء.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الدلائل العقلية المستنبطة من مقدمات صحيحة أيضا توصل الإنسان - بلا ريب - إلى علم اليقين. وإلى ذلك يشير الله جل شأنه في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لايَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكرُونَ فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١-١٩٢).. أي أن الحكماء وأصحاب العقول حين يفكرون في

تكوين الأرض والأجرام السماوية، ويُمعنون النظر في بواعث الظواهر الكونية.. كاختلاف الليل والنهار في القصر والطول، فإنهم يهتدون -بالنظر إلى هذا النظام- إلى دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، فيطلبون من الله العون لمزيد من العلم والاكتشاف.. فيذكرونه قائمين وقاعدين ومستلْقين على جنوبهم، فتزداد عقولهم صفاءً وجلاءً. وعندما. وعندما يتدبرون بعقولهم الصنعةَ البديعة في الأجرام الفلكية والأرضية.. لا يملكون إلا أن يقولوا: إن هذا النظام الهائل المحكم كل الإحكام ليس عبثًا وبلا طائل، وإنما هو مرآةٌ تُرِي وجهَ الخالق. فيقرون بألوهية صانع هذا العالم، ويناجونه قائلين: ربنا، سبحانك وحاشاك أن ينكر أحد ذاتَك، فيصفها بما لا يليق بشأنك؛ فاحمِنا من نار الجحيم.. أي أن الجحود بك هو الجحيم عينها، وأن الراحة والطمأنينة كلها فيك وفي معرفتك. ومَن حُرِم من معرفتك الحقيقية فإنما هو في النار وهو في هذه الدنيا.

حقيقة الفطرة الإنسانية

وكذلك من وسائل العلم الوجدانُ الإنساني الذي سمي في كتاب الله باسم الفطرة الإنسانية.. حيث يقول الله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣١).. أي أن الناس مخلوقون على فطرة

الله سبحانه وتعالى. فما هو ذاك الطابع الفطري يا تُرى؟ إنما هو الاعتقاد بأن الله واحد، لا شريك له، وأنه خالق الكل، ومنـــزه عن الولادة والموت.

وأننا نعتبر حكم الوجدان بمنـــزلة علم اليقين.. لأنه - وإن كان لا يبدو في ظاهره الانتقالُ من علم إلى آخر كانتقال العلم بالدخان إلى العلم بوجود النار - إلا أنه في الحقيقة لا يخلو أيضًا من انتقال دقيق على نحو ما. وبيان ذلك أن الله قد أودع كل شيء خاصيةً مجهولة، لا يمكن أن يحيط بها الوصف والبيان، ولكن إذا نظر الإنسان إلى شيء أو تصوره.. انتقل الذهن فورًا إلى تلك الخاصية الموجودة فيه لما بينهما من تلازم شديد.. فتلك الخاصية تستلزم ذلك الشيءَ كما تستلزم النارُ الدخانَ. فمثلا عندما نتدبر في ذات الله تعالى، ونفكر كيف يجب أن يكون.. أينبغي أن يكون مولودًا كمثلنا، ويقاسي الآلام كمثلنا، ويموت كما نموت؟ فما أن يخطر هذا التصورُ عن الله تعالى ببالنا إلا وتتألم منه قلوبنا امتعاضًا، ويشمئز منه الوجدان ويثور عليه وكأنه يدفع هذا التصور بشدة.. وينادي قائلا: إن الإله الذي تتوقف جميع آمالنا على قدراته، يجب أن يكون منـــزها عن العيوب والنقائص كلها، وكاملا وقويا. ما أن يمر بخاطرنا فكرة الإله إلا نشعر بوجود تلازمٍ كاملٍ بين الله ووحدانيته

تلازُمَ النار والدخان أو أشد منه. وهكذا فإن العلم الحاصل لنا بطريق الوجدان يدخل أيضا في عداد علم اليقين.

ضرورة الوحي للعرفان الكامل

غير أن هناك درجةً أخرى من العرفان أعلى من هذه.. تسمى عينَ اليقين. والمراد به هو اليقين الذي لا يُبقي بيننا وبين الشيء الذي نوقن به أي واسطة. ومثال ذلك ما نشمه من رائحة زكية أو كريهة بحاسة الشم، أو ما نذوقه من الحلو أو المالح بحاسة الذوق، أو ما نحسه من الحرارة أو البرودة بالحس، فكل هذه المعلومات هي من قبيل عين اليقين.

وعِلمنا بغيبيات العالم الأخروي لا يبلغ درجةَ عين اليقين إلا إذا تشرفنا بالوحي مباشرة بلا واسطة.. وسمعنا كلامَ الله بآذاننا.. وشاهدنا الكشوف الإلهية الواضحة الصحيحة بأم أعيننا. إننا، ولا ريب، بحاجة إلى الوحي الرباني المباشر حتى نكتسب العرفان الكامل. وفعلا نجد في أنفسنا ظمأً وجوعًا لهذا العرفان الكامل. فلو لم يكن الله قد هيأ لهذه المعرفة أسبابها من قبل، لما كان سبحانه قد أوجد فينا جوعًا وظمأً لها. هل يكفينا في حياتنا هذه –التي هي المقياس الوحيد لذخيرتنا الأخروية– بأن نؤمن بذلك الإله الحق

الكامل القادر الحي.. إيمانا لا يتجاوز القصص والحكايات فقط؟ أو أن نكتفي بمجرد المعرفة العقلية التي لم تزل حتى الآن معرفةً ناقصة غير كاملة؟ أَوَلا يودّ العاشقون الصادقون.. الذين تَمَلّكَ حُبُّ الله قلوبهم.. أن يتمتعوا بكلام ذلك الحبيب؟ هل يمكن لأولئك الذين زهدوا في دنياهم كلها، وضحّوا بنفوسهم، وفدَوا بقلوبهم.. أن يقنعوا بالموت واقفين تحت بصيص ضوء خافت، ولا يتمكنوا من رؤية طلعة شمس الحق تلك؟ أوليس حقا أن نداء ذلك الإله الحي: "أنا الموجود" يمنح درجة سامية من العرفان، بحيث لو وضعنا نداء "أنا الموجود" في كفةٍ.. ووضعنا في كفة أخرى ما ألفه فلاسفة الدنيا كلهم في كتبهم من عند أنفسهم.. لم يبق لكتبهم وزن ولا قيمة أمام ذلك النداء؟ ماذا عسى أن يعلّمنا هؤلاء الذين لم يزالوا عميانا إن كانوا يُسمون فلاسفة؟

إذن فما دام الله قد أراد أن يهب لطلاب الحق العرفانَ الكامل.. فلا بد أن يكون سبحانه وتعالى قد ترك لهم باب المكالمة والمخاطبة مفتوحا أيضا.

قال الله جل شأنه في القرآن الكريم في هذا الشأن: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والمراد بالإنعام

هنا الإلهام والكشف وما شابههما من العلوم السماوية التي يؤتاها الإنسان مباشرة من لدن الله تعالى.

كذلك يقول الله في مقام آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ التِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣١). لقد بين في هذه الآية أيضا بكلمات صريحة أن عباد الله الصالحين يتلقون الوحي من الله عندما يصيبهم الخوف والحزن، وأن الملائكة يتنـــزلون عليهم ويطمئنونهم.

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ﴾ (يونس: ٦٤-٦٥).. أي أن أولياء الله يتلقون البشارة بالوحي والمكالمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المراد من الوحي

وليكن معلوما أن الوحي هنا لا يعني ما يقع في النفس نتيجةَ تفكيرٍ كما قد يحصل للشاعر إذا حاول نظم الشعر، أو قال جزءًا من البيت وأجال الفكر للثاني.. فيقع الجزء الثاني في قلبه. فما يقع في القلب هكذا ليس من قبيل الوحي، وإنما هو ثمرة لتفكره وتأمله

تبعا لقوانين الطبيعة. فمن يفكر في الحسنات أو في السيئات لا بد وأن يقع في قلبه شيء بحسب سعيه. فمثلا هناك رجل صالح صادق.. يقرض أبياتًا ذَودًا عن الحق، وهناك شخص آخر خبيث فاجر.. يدافع في أبياته عن الباطل، ويسبّ أهل الحق، فكلاهما ينجح بعض النجاح في نظم القوافي، بل لا غرابة لو جاء شعر هذا العدو لأهل الحق والمدافع عن الباطل أحسنَ نظما منه لدوام ممارسته َنظْم الشعر. فلو كان وقوع أفكارٍ في القلب يسمى وحيًا، فلا بد أنْ يُسمى الشاعر الشرير - الذي يعادي الحق وأهلَه ويحمل قلمه دائما ضد الحق ويلجأ إلى الافتراء - مُلهَمًا من الله! وإنكم تجدون البيان الساحر في الروايات وغيرها، وترون كيف أن المواضيع الباطلة تُلقى في قلوب مؤلفيها محبوكة سلسة.. فهل يجوز أن نسميها وحيا؟ بل لو كان الوحي اسما لمجرد ما يقع في القلب من أمور لاعتُبر السارق أيضا من الملهمين، فإنه كثيرا ما يُعمل فكره فيأتي بحيل رائعة للنقْب والسرقة، وتمر بخاطره أساليب مدهشة للنهب وسفك الدماء، فهل يجوز إذن أن نسمي هذه الطرق الخبيثة جميعها وحيا؟ كلا، بل إنما هو ظن أولئك الذين لم يعرفوا ذلك الإله الحق.. الذي -هو نفسه- يُطَمْئِن القلوبَ بكلامه الخاص، ويهب المعارف الروحانية لمن يجهلها.

علامات الوحي الحقيقي

ما هو الوحي؟ إنه مكالمة القادر القدوس مع عبدٍ من عباده الأخيار.. أو مع من يريد أن يصطفيه.. بكلام حي ذي قدرة.. فإذا ابتدأ هذا الحوار بقدر كافٍ وعلى نحو مُرضٍ شافٍ، بحيث لا تشوبُه ظلمة الأفكار الفاسدة، ولا يكون غيرَ كافٍ أو مشتملاً على كلمات قليلة غامضة، بل كان على العكس كلاما لذيذا ذا حكمة وجلال.. فذلك كلام الله يريد به أن يُطَمْئِن عبدَه ويُظهر عليه نفسه. غير أن كلام الله مع العبد قد يكون على سبيل الاختبار فقط، ويفتقد إلى البركة والكفاية، ويراد به اختبار العبد في حالته البدائية ليذوق لذة قليل من الوحي، فإما أن يجعل به حالَه وقالَه كمثل الملهمين الصادقين، وإما أن يتعثر. فإن لم يسلك كالصادقين طريق السداد الحقيقي.. أصبح محروما من استيفاء تلك النعمة، فلا يبقى في يده إلا هتافات زائفة.

لقد تلقى الوحيَ الملايينُ من عباد الله الصالحين، لكن منـــزلتهم لم تكن واحدة عند الله. بل حتى أنبياء الله الأطهار.. الذين يتلقون وحيا من الطراز الأول بكل صفاء وجلاء ليسوا سواء في المرتبة. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٤). فثبت من ذلك أن الوحي فضلٌ محضٌ من الله تعالى.. وليس

هو في ذاته دليلا على الفضل، لأن الفضل إنما يكون على قدر الصدق والوفاء، وهي أمور لا يعلمها إلا الله وحده. نعم، قد يكون الوحي أيضا من ثمرات تلك الصفات.. بشرط أن تتوافر في الوحي شروطه المباركة.

لا شك أن الوحي لو تم في صورة حوار بين الله والعبد.. بحيث يسأل العبد والرب يجيب، وكان الوحي متسما بالجلال والنور الربانيين، ومشتملا على علوم غيبية أو معارف حقة.. فلا شك أن هذا الكلام هو وحي من الله. إن الوحي الإلهي يستلزم أن يكون فيه حوار بين الله وعبده. فكما يحادث الصديق صديقَه عند اللقاء كذلك ينبغي أن يتم الحوار بين الله وعبده، بحيث أن العبد إذا سأل الله عن شيء يسمع في الجواب مِن الله تعالى كلامًا لذيذًا فصيحًا خاليًا تماما من أية شائبة من حديث نفسه أو تفكيره أو تدبره، وبحيث تصبح تلك المكالمة والمخاطبة هبةً وهديةً له من الله. فإن كان الوحي على هذا المنوال فذلك كلام الله.. ويكون ذلك العبد مكرمًا عند الله تعالى.

غير أن هذه الدرجة.. التي يصبح عندها الوحي هبةً.. ويتشرف العبد بوحيٍ إلهي متسلسل متدفق بالحياة والطهر، متسم بالصفاء والجلاء، أقول إن هذه الدرجة لا يحوزها إلا أولئك الذين يتقدمون

في الإيمان والإخلاص والأعمال الصالحة وفيما لا نستطيع أن نحيط به وصْفًا. إن الوحي الصادق الصافي المصَفى لَيُري عجائب عظيمة من الألوهية. فكثيرا ما يتولد نور جِد ساطع.. مصحوبًا بكلام فيه جلال ونور ساطع. ماذا يبغي العبدُ أعظمَ مِن أنه يحادث مَن خلق السماوات والأرض؟ إن رؤية الله في الدنيا إنما هي أن يكلم الإنسان ربّه.

غير أننا لا نعني من هذا البيان حالةَ الإنسان التي تجري فيها على لسانه كلمةٌ بدون مناسبة، أو جملة أو بيتٌ من شعر هكذا عرضًا.. بل إن مثل هذا الإنسان يكون في اختبار من الله، لأن الله سبحانه وتعالى قد يفتن بهذا الطريق أيضا العبادَ الكسالى الغافلين إذ تجري كلمة أو عبارة في قلب الإنسان أو على لسانه.. وهو لا يدري مصدرها.. أهي من الله أم من الشيطان؟ فلا بد من الاستغفار لدى تلقي مثل هذه العبارات.

أما إذا بدأت المكالمةُ الإلهية مع عبد صالح كشفًا بلا حجاب، بحيث يسمع العبد من الله على أسلوب الحوار المتسم بقوة وجلال.. كلاما جليا عذبا.. زاخرًا بالمعاني فائضًا بالحِكم، وبحيث يتاح للعبد أن يكون بينه وبين الله مثل السؤال والجواب، مرارا، وفي حالة يقظة تامة.. حيث العبد يسأل والرب يجيب، ثم يلتمس العبد مرة أخرى

والله تعالى يرد، ثم يعود العبد يعرض طلبه بخشوع وتضرع.. فيجيبه الله تعالى أيضا.. ويتكرر هذا الحوار بينه وبين الله سؤالا وجوابا حتى يبلغ هذا السؤال والجواب عشر مرات على الأقل في مناسبة واحدة، وبالإضافة إلى ذلك يستجيب الله تعالى أثناء هذه الحوارات لكثير من أدعيته، ويُطلعه على المعارف النفيسة، ويخبره بالحوادث المقبلة.. ويُشرّفه بكلامه الجلي الواضح.. سؤالا وجوابا مرة بعد أخرى؛ فمثل هذا العبد الصالح حري به أن يشكر الله تعالى شكرا كثيرا، وخليق به أن يكون أكثرَ الناس بذلا لنفسه في سبيل الله، لأن الله بفضله المحض قد اجتباه لنفسه من بين عباده جميعا.. وجعله وارثا للصديقين الذين خلوا من قبله. إن هذه النعمة نادرة النوال.. ودليل على حسن طالع الإنسان الذي ينالها، وأما ما سواها مما يحسبونه إلهاما فلا قيمة له.

خصوصية الإسلام

كان ولا يزال رجال حائزون على هذه الدرجة موجودين في أمة الإسلام على الدوام. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي عن طريقه يقترب الله من عبده ويناجيه، وينطق في داخله، ويتخذ في قلبه عرشا

له.. ثم يجذبه من باطنه إلى السماء، ويعطيه كل نعمة أُوتيِها الأولون.

الأسف كل الأسف.. أن الدنيا العمياء لا تدري إلى أين يمكن أن يصل الإنسان وهو يتقرب ويتقرب إلى الله! إن أهلها لا يحرِّكون بأنفسهم قدمًا، وإذا تقدّمَ غيرهم فإما كفّروه وإما ألّهوه ونصّبوه في مقام الله ﷻ. وكلا الأمرين ظلمٌ.. هذا من الإفراط وذاك من التفريط. ولكن ينبغي للعاقل ألا يكون ضعيف الهمّة، فلا ينكر هذه الدرجة، ولا يستخفّ بمن نالها، أو يشرع في عبادته. في هذا المقام يُظهر الله لعبده من القرب الشديد وكأنه يُلقي عليه رداء ألوهيته، فيصبح مثل هذا الإنسان مرآةً لرؤية وجه الله. وهذا هو السر وراء قول نبينا ﷺ: "من رآني فقد رأى الله".

قصارى القول، إن هذا تحذير شديد للعباد، وإليه ينتهي كل السلوك، وبه تحصل الطمأنينة التامة.

تشرُّفُ صاحب المقال بمكالمة الله وخطابه

وأكون قد ظلمت بني جنسي إن لم أعلن لهم في هذه الساعة أن هذا المقام الروحاني الذي وصفته هذا الوصف، وأن مرتبةَ التشرف بمخاطبة الله ومكالمته التي فصلتها الآن.. ميَسرة لي بفضل الله وعنايته.

ذلك لكي أمنحَ العميان البصيرة، وأدلّ الباحثين على ضالّتهم المنشودة، وأبشّر - مَن يقبل الحق - بتلك العين الصافية التي يتحدث عنها الكثيرون. ولكن قليل هم الذين يجدونها.

إنني أؤكد للمستمعين الكرام.. أن الإله الذي بلقائه يجد الإنسان النجاة والسعادة الأبدية.. لن يجده أحد إلا باتباع القرآن المجيد. يا ليت الناس يرون ما رأيتُ، ويسمعون ما سمعتُ، ويتركون الأقاصيص، ويُقبلون على الحقيقة مسرعين!

إن وسيلة العلم الكامل التي بها نشاهد الله تعالى، وإن الماءَ الذي يطهر من الأدران، وبه تزول جميع الشكوك، وإن المِرآة الصافية التي تُري طلعةَ الإله العلي.. إنما هي المكالمة الإلهية التي ذكرتُها آنفا. فلينهضْ وليطلبْها من كان في روحه للحق شوق. فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ: لو تولد في الأرواح رغبةٌ صادقة وفي القلوب ظمأ حقيقي، لبَحثَ الناس عن هذا الطريق، وسعوا للعثور عليه.

ولكن كيف يُفتح ذاك الطريق، وأنى يُرفَع ذاك الحجاب؟ إنني لأؤكد للطالبين جميعا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يبشر بهذا الصراط.. وأما الأمم الأخرى فقد ختَمتْ على وحي الله من زمان بعيد. واعلموا يقينا أن خَتْمَهم المزعوم هذا ليس من الله الرحمن، وإنما هو عذر انتحله الإنسان عند الحرمان. واعلموا يقينا أنه كما لا يمكن

لنا أن نرى بغير العيون، أو أن نسمع بدون الآذان، أو أن ننطق بغير اللسان.. كذلك من المستحيل أن نرى وجه ذلك الحبيب الودود بدون القرآن. كنتُ شابا وقد صرتُ الآن شيخا، ولم أجِد أحدًا شرِب كأسَ هذه المعرفة البينة.. بدون هذه العين الصافية.

الوحي الرباني وسيلة العلم الكامل

فيا أيها الأعزة، ويا أيها الأحباب، لا أحد يستطيع أن ينازع اللهَ في مشيئته وإرادته. فاعلموا يقينا أن وسيلة العرفان الكامل هي الوحي الرباني.. الذي أوتيه أنبياء الله الأطهار.. ثم من بعدهم لم يُرِد الله -وهو بحر الفيوض- أن يوصد بابَ الوحي في المستقبل فيُهلك العالَمَ، بل إن أبواب وحيه ومكالمته سبحانه لمفتوحة للأبد. ليس عليكم إلا أن تلتمسوها من سُبلها وسوف تجدونها عندئذ بسهولة. لقد نــزل من السماء ماءُ الحياة واستقر في مقره المناسب، فماذا يجب فعلُه الآن لتتمكنوا من شربه؟ ما عليكم إلا أن تَرِدوا ذلك المَعين في كل حال ولو بتجشم المشاق.. ثم ضعوا أفواهكم أمامه لترتووا من زلال الحياة. إن سعادة الإنسان كلها إنما تكمن في أن يسعى إلى حيث يرى ذلك النورَ، وأن يسلك الطريق الذي يتوسم فيه آثار ذلك المحبوب المطلوب.

ترون الضوء ينـــزل دائما من السماء إلى الأرض، كذلك يسطع نور الهدْي الصادق من السماء أيضا. إن ما يخترعه الإنسان من أمور من عند نفسه -بناء على ظنونه- لن تُكسبه المعرفة الحقة. هل تستطيعون أن تجدوا الله جل جلاله بدون تجلياته؟ هل تقدرون على الرؤية في الظلمات بدون نور السماء؟ فإن استطعتم هذا فعساكم تتمكنون من الرؤية هنا أيضا. الواقع أنه مهما كانت أعيننا مبصرةً فإنها تفتقر إلى الضوء السماوي، ومهما كانت آذاننا قادرة على السمع فإنها -لا جرم- تحتاج إلى الهواء الذي يهبّ من عند الله. ليس بإلهٍ حق مَنْ لزم الصمت.. وقام وجوده كله على ظنون الخلق. بل إنما الإله الكامل الحي هو مَن لم يزل يدل على نفسه بنفسه، وقد أراد الآن أيضا أن يخبر بوجوده. لقد آن أن تنفتح نوافذ السماء، وآن للصبح الصادق أن يضيء. فطوبى لمن يَهُب الآن من الرقاد ويأخذ في البحث عن الإله الحق.. ذلك الإله الذي لا تدور عليه الدوائر ولا المصائب، والذي لا يطرأ أبدًا على تألُّقِ جلاله طارئ. يقول الله في القرآن الكريم: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٦).. أي أن الله سبحانه هو نور السماء ونور الأرض في كل آن، وبنوره يُشرق كل مكان. إنه سبحانه الشمسُ للشمس،

وهو الحياة لكل ذي حياة في الأرض، وهو الإله الحق الحي. فبُورِك مَن به آمن!

والوسيلة الثالثة للعلم هي تلك الأمور التي هي على بمرتبة حق اليقين، وهي كل ما يصيب أنبياءَ الله والصالحين من شدائد ومصائب وآلام، على أيدي الأعداء، أو بحكم القضاء والقدر من السماء. إن تعاليم الشريعة تكون في نفس الإنسان مجردَ معلوماتٍ نظرية قبل أن تعركه شدة المصائب والآلام، ولكن عندما تنزل عليهم هذه البلايا تتحول هذه التعاليمُ إلى أعمال، وتنمو وتزدهر في تربة العمل لتصل إلى الكمال، فإذا نفوس العاملين تصبح نسخة كاملة من الشريعة الإلهية، وبسبب الممارسة العملية يأخذ كل عضو من أعضائهم نصيبَه من جميع الأخلاق مِن عفو وانتقام وصبر ورحمة وغيرها.. وقد كانت هذه التعاليم من قبل مجرد معلومات محشوة في الدماغ والقلب؛ وهكذا تنعكس على الجسم كله وتترك فيه آثارها، كما يقول الله جل شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٨)، ويقول تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٧)..أي أننا سوف نختبركم حتمًا بالخوف والفاقة والخسارة في الأموال والنفوس وضياع الجهود وموت الأولاد.. يعني أن هذه المصائب كلها ستصيبكم إما بيد القدر أو بيد الأعداء. فطوبى لمن لا يقولون عند حلول المصيبة إلا "إننا مِلكٌ لله وإنا إليه راجعون"، لأن هؤلاء عليهم رحمة الله وصلاة منه، وهؤلاء هم الذين قد بلغوا ذروة الهدى.. بمعنى أنه ليس الفضل والشرف في مجرد اكتساب العلم الذي يكون حشوًا في الدماغ والقلب، إنما العلم الحقيقي هو ذاك الذي يسري من الذهن إلى الأعضاء كلها، فتصطبغ بصبغته وتتأدب بأدبه، ويتحول ما حوته الحافظة من معلومات إلى أعمال. ذلك لأن أعظم وسائل إتقان العلم وإنمائه أن تحفر نقوشه في الأعضاء بالممارسة العملية.. إذ لا يبلغ أي علم من العلوم - مهما كان بسيطا- الكمالَ بدون تدريب وممارسة. فمثلا نعلم من طول ما شاهدناه أن صناعة الخبز أمر سهل جدًّا لا يتطلب دِقةً كبيرة. فكل ما هنالك أن يُعجَن الدقيق، ويُقطع العجين قطعا بقدر رغيف، ثم يُبسط باليد، ثم يوضع على اللوح، ويسوى على الجمر فإذا هو خبز. هذا هو مبلغ علمنا الذي لا يقوم على التجربة. وأما إذا بدأنا نخبز بدون تجربة

سابقة.. فأول مشكلة نواجهها في ذلك هي المحافظة على قوام مناسب للعجين.. لأنه إما أن يتصلب كثيرا وإما أن يلين كثيرا ويسترخي فلا يصلح للرغْف. ولو أمكننا أن نعجنه بعد طول مشقة، نجد أن ما خبزناه من أرغفة قد جاء بعضها محترقا، وبعضها غير ناضج، وفي وسطه كتل، وقد تهدّلَ من جوانبه في شكل غير منتظم.. مع أننا نشاهد صنعَ الخبز منذ خمسين سنة. وهكذا نكون قد أضعنا بضعة أرطال من الطحين بسبب العلم النظري الذي لم يقترن بالتمرين.

فما دام هذا هو مصير علمنا في الأمور البسيطة.. تُرى كيف يمكن أن نعتمد في عظائم الأمور على مجرد المعرفة السطحية التي لا يصاحبها التمرن والمزاولة العملية؟

لقد علمنا الله في هذه الآية أن ما يصيبنا به من صنوف الآلام والبلايا.. إنما هو وسيلة لكسب العلم والتجربة.. أي أن علمنا يبلغ الكمالَ بسببها.

ثم قال سبحانه وتعالى أنكم سوف تُختبرون في أموالكم وأنفسكم. سوف يسلبكم الناس أموالكم ويقتلونكم، وسوف تتحملون أذىً شديدا بأيدي اليهود والنصارى والمشركين، وسوف

يأتون بأقوال تؤذيكم. فإن صبرتم عليها وتجنبتم ما لا يليق فذلك عمل يدل على الهمة والشجاعة منكم.

وخلاصة هذه الآيات أن العلم المبارك هو ما يتجلى أثره من خلال العمل، وأن العلم المشؤوم هو ما ينحصر في النظرية ولا يُجاوزُها إلى العمل أبدا.

واعلموا أنه كما يربو المال ويثمر بالتجارة.. كذلك يبلغ العلم كمالَه الروحاني بالمزاولة العملية. فالتطبيق العملي وسيلة عظيمة لبلوغ العلم إلى الكمال.. لأنه يُكسِب العلم نورًا.

كيف يرتقي العلم إلى درجة حق اليقين؟ إنما سبيله أن يُختبر العلم من كل الوجوه اختبارًا عمليًا. وهذا ما حدث بالضبط في الإسلام. فإن كل ما علمه الله للناسِ بالقرآن المجيد من تعليم، قد أتاح لهم فرصًا لكي يصقلوه بالممارسة العَملية، ويمتلئوا من نوره.

فترتان من حياة الرسول ﷺ

لذلك قسم الله تعالى حياة نبينا ﷺ إلى عصرين: عصر الآلام والمصائب والمحن، وعصر الفتح والظفر. ذلك لتظهر في أوان المصائب أخلاقُه التي لا تنكشف في وقت آخر، وتبرز في زمن الفتح أخلاقُه التي لا تبرز إلا مع الاقتدار والغلبة. وهكذا ظهرت أخلاق

سيد الرسل ﷺ بنوعيها ظهورا كاملا في نوعين من الأحوال في العصرين، إذ أنه ﷺ قد صادف في كل منهما ظروفا مختلفة؛ فإن قراءة سيرته في فترة المصائب التي لازَمته في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاما.. تُبين بكل وضوح تحلّيه ﷺ عندئذ بجميع تلك الأخلاق التي يجدر بالصادق الكامل أن يتحلى بها عند المصائب.. كالتوكلِ على الله، وتجنبِ الجزع والفزع، وعدمِ التكاسل في العمل، وعدمِ الخوف من العدو.. حتى لم يملك الكفار إلا التصديق به عندما رأوا استقامته تلك، وشهدوا أنه ما لم يكن أحد متوكلا على الله تماما لما أمكنه أن يبدي تلك الاستقامة وذلك الصبر على الشدائد والآلام.

ولما جاء العصر الثاني.. عصر الفتح والسلطة والثراء.. أشرقت فيه شمائل كريمة للنبي ﷺ.. مِن عفوٍ وجُود وشجاعة.. إشراقا كاملا بحيث آمن كثير من الكفار لرؤية أخلاقه هذه. لقد عفا ﷺ عن الذين آذوه، وأمّن الذين طردوه من بلده، وأغنى المحتاجين منهم بالمال، وصفح عن ألد أعدائه بعد أن تمكن منهم.. حتى شهد الكثير من الناس عندما رأوا من أخلاقه بأنه لا يمكن أن يتحلى بها أحد ما لم يكن في الحقيقة صادقًا ومبعوثًا من عند الله. ومن أجل ذلك زالت الضغائن القديمة تماما ودفعة واحدة من صدور أعدائه.

أعظم خُلقٍ من أخلاق سيد الرسل

إن أعظَمَ خُلقٍ تحلّى به النبي ﷺ هو ما ذكره القرآن في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣).. أي أَعلِنْ لهم أن عبادتي وتضحيتي وحياتي وموتي كلها في سبيل الله.. أعني لإظهار جلاله عز وجل، وتقديم الراحة لعباده.. كي ينالوا الحياة بموتي.

وأما ما ذُكِر هنا من الموت في سبيل الله ولخير الإنسانية فلا يجدر أن يُسيء أحد فهمه ويظن أنه ﷺ كان ينوي - والعياذ بالله - الانتحارَ حقا كالجهال والمجانين، زاعمًا أن قَتْلَه نفسَه هكذا بسلاح ما سوف ينفع الآخرين. كلا، بل كان ﷺ يعارض بشدة مثلَ هذه الأعمال العابثة، وإن القرآن الحكيم يعتبر من ينتحر هكذا مجرما ارتكب جرما عظيما يستوجب العذاب.. فقال: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٦) ..أي لا تنتحروا، ولا تتسببوا في هلاككم بأيديكم. والواضح أنه لو كان خالد مثلا يشتكي الوجع في بطنه، فترحّمَ عليه زيدٌ وشجّ رأسَه هو، فلن يُعَدَّ هذا معروفا في حق خالد، وإنما يقال: لقد شجّ رأسه حمقًا وغباءً وبدون جدوى. وإنما يكون المعروف أن يقوم زيدٌ بما يليق وينفع خالدا.. كأن يُحضر له أدوية نافعة ويداويه بحسب المبادئ الطبية. أما أن

يشج رأسه هو.. فذلك لا ينفع خالدا بشيء، بل على العكس.. إنما يوجع عضوًا شريفًا من جسمه دون جدوى.

فالمراد من الآية المذكورة آنفا، أن النبي ﷺ كان قد نذر نفسه لإنقاذ الإنسانية، عن طريق المواساة الحقيقية لهم، وبتحمل المشاق في سبيل ذلك.. متوسلا بالدعاء والدعوة والصبر على الجور والظلم وبكل طريق لائق حكيم.. كما قال الله جل شأنه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٤)، وقال: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر: ٩).. أي هل أنت مهلكُ نفسِك بهذا الغم والمعاناة التي تكابدها من أجل الناس، وهل أنت قاضٍ على حياتك حسرةً على هؤلاء الذين لا يقبلون الحق؟

فالأسلوب الحكيم للتضحية بالنفس في سبيل القوم إنما هو أن يتحمل الإنسان العناء لمصلحتهم، عاملا بالقوانين الطبيعية النافعة، ويَنذر نفسه لاتخاذ التدابير النافعة لهم؛ لا أن يشج رأسه بحجر، أو أن يبتلع سما ويرحل عن الدنيا متأثرًا مما يرى فيه قومَه من بلاء شديد وضلال كبير وموقف خطير، ثم يحسب أنه قد أنقذ قومه بفعلته غير اللائقة هذه. ذلك ليس من شأن الرجال.. بل هو من صفات النساء. فإن من عادة عديمي الهمة أنهم يعمدون دائما إلى الانتحار فورا عند مواجهة مصائب يصعب عليهم تحملها. إن هذا

الانتحار، مهما يقال في تبريره بعد ذلك، عارٌ عند العقل والعقلاء بلا ريب.

غير أنه من الواضح أنه ما لم تسنح لأحد فرصة الانتقام من العدو فلا اعتبارَ لِصبره وامتناعه عن الانتقام. فما يدرينا ماذا سيفعل هذا لو قدر على الانتقام؟ إن أخلاق الإنسان لا تظهر أبدا على حقيقتها ما لم يمر بفترة من المصائب، وأيضا بفترة من المقدرة السلطان والثراء.. إذ من البين أن الذي يموت في حالة من الضعف وقِلة الحيلة وفقدان السلطة، مضروبا بأيدي الناس، وبدون أن يجد أياما من السلطة والحكومة والثروة.. لن يتجلى من أخلاقه شيء. وما لم يحضر ساحة القتال فلن يثبت لنا ما إذا كان شجاعًا أم جبانا. إننا لا نستطيع أن نحكم على أخلاقه.. لأننا لم نعرف منها شيئا؛ فلا ندري كيف كان سيعامل أعداءه لو تمكن منهم؛ وكيف كان سيتصرف بثروته لو صار غنيا.. هل يُمسك المال أم ينفقه على الناس؛ وكيف كان سيفعل في ساحة القتال.. هل يفر من العدو جُبنا أم يسلك سلوك الشجعان؟

بيْد أن الله تعالى قد أتاح بعنايته وفضله لنبينا ﷺ فرصًا للتحلّي بجميع هذه الأخلاق. فقد صدر منه الجود، والشجاعة، والحلم، والعدل.. كل في محله.. ظهورا يستحيل أن نجد نظيره على وجه

البسيطة. ففي الحالتين.. حالة الضعف والفقر وحالة المقدرة والثراء، لقد أثبت محمد للعالم كله ما كانت عليه ذاته الشريفة من السمو في الشمائل الحميدة. ليس ثَمّة خُلقٌ من الأخلاق الفاضلة الإنسانية إلا أتاح الله له ﷺ فرصًا لظهورها. لقد تجلت منه ﷺ الشجاعة والكرم والاستقامة والحلم والعفو وغيرها من الأخلاق الفاضلة.. تجليا يعتبر البحث عن نظيره في الدنيا ضربا من المحال.

نعم، إنه لحق أيضا أن أولئك الذين بلغوا من الظلم منتهاه، وأرادوا استئصال الإسلام والقضاء عليه.. لم يتركهم الله دون عقاب.. لأن تركهم من غير عقاب هو بمنـــزلة سحق الصالحين تحت أرجلهم.

غاية غزوات النبي ﷺ

فما كانت غزوات النبي ﷺ تهدف إلى قتل الناس بدون داعٍ، وإنما لأن الظالمين أخرجوه وأصحابه من ديار آبائهم، وقتلوا الكثيرَ من رجال المسلمين ونسائهم دون ذنب، ومع ذلك كانوا لا يكفون عن الظلم، وكانوا يمنعون تعاليم الإسلام من الانتشار.. لذلك اقتضى القانون الرباني لحفظ الأمن أن يحفظ المظلومين من الفناء، فتمّ القتال بالسيف ضد من شهروا السيف.

فلم تكن حروبه ﷺ إلا إخمادًا لفتنة القتلة السفاكين.. ودفعا لشرهم عن المظلومين. ولقد قامت الحرب حين كان الظالمون يبغون القضاء على أهل الحق. ولو لم يتخذ الإسلام حينئذ تلك الوسائل حفاظا على النفس، لهلك آلاف الأبرياء من أطفال ونساء بغير حق.. ولقُضي على الإسلام.

أغلوطة فاحشة

وليكن معلومًا أنه لَتعنّتٌ كبير من قِبل معارضينا إذ يزعمون بأن هديَ الوحي الرباني ينبغي أن يتسامى عن حثّ الإنسان على مقاومة العدو في كل الظروف والأحوال.. ويجب أن يحضه دائما وأبدا على التحلّي بالحلم والرفق حبا ورحمةً بالعدو. ويحسب هؤلاء الناس أنهم بحصر صفات الله الكاملة كلها في الحلم والرأفة يعظمونه -جل شأنه- تعظيما كبيرا! ولكن المتفكرين في الأمر بإمعان وتدبر.. سوف يدركون بسهولة أن هؤلاء واقعون في خطأ فاحش واضح.

إذا أجَلنا النظر في نواميس الطبيعة تبينَ لنا جليًّا أن الله -بلا شك- رحمةٌ خالصة للدنيا، إلا أن رحمته هذه لا تظهر دائما وفي كل حال بصورة اللطف والرفق، بل إنه بسبب رحمته الواسعة

يسقينا -شأن الطبيب الحاذق- شرابًا حلوًا في بعض الأحيان، ويسقينا دواءً مرا أحيانا أخرى. إن رحمته ﷻ ببني آدم تُشبه رحمةَ أحدنا ببدنه كله. لا شك أن كُلا منا يحب جسده كله، ولئن أراد أحد أن ينتزع منه شعرة واحدة ثار غضبًا. وعلى الرغم من أن حُب أحدنا لجسده موزع على كل أعضائه، إذ كل عضو منه محبب إليه، ولا يريد الضرر بأي منها، إلا أن هذا الحب ليس موزعا على كل الأعضاء بشكل متساوٍ، بل تغلب فينا محبةُ الأعضاء الرئيسة الشريفة التي نعتمد عليها إلى حد كبير في حياتنا. كذلك نحب الأعضاء في مجموعها أكثر من حبنا لعضو واحد بمفرده، ولذلك إذا أصبحت سلامة عضو شريف متوقّفةً على جراحة عضو آخر أدنى منه، أو حتى على كسْره أو بتره.. فإننا نُقدِم على ذلك بلا تردد.. إبقاءً على الحياة. نعم، إن قلوبنا تعاني الألم حينئذ لأننا نجرح أو نقطع عضوا عزيزا من أعضائنا.. ولكن رغم ذلك نُضطر إلى هذا مخافة أن يسري فساده إلى عضو شريف آخر فيتلفه معه.

ومن هذا المثال يمكن أن نفهم أن الله تعالى حين يرى أن عباده الصالحين موشكون على الهلاك بأيدي أرباب الباطل، وأن الفساد في ازدياد.. فإنه يتخذ تدابير ملائمة.. إما من السماء وإما من

الأرض.. إنقاذا لأوليائه، وحسما للفساد. فإنه كما هو حكيم، كذلك هو رحيم.

والحمد لله رب العالمين.

فهارس
فلسفة تعاليم الإسلام

❁❁❁❁❁❁

فهرس الآيات القرآنية

❁❁❁❁❁❁

فهرس الأحاديث النبوية

❁❁❁❁❁❁

فهرس المواضيع

الله ﷻ

الإسلام

الأعمال

الإلهام/ الوحي

الانتحار

الإنسان

الحجاب

الخلق/ الأخلاق

الأخلاق قسمان

الصراط المستقيم

العارف

العالَم

عالم البعث

المعارف القرآنية الثلاث عن عالم المعاد

العدل

۞۞۞۞۞۞